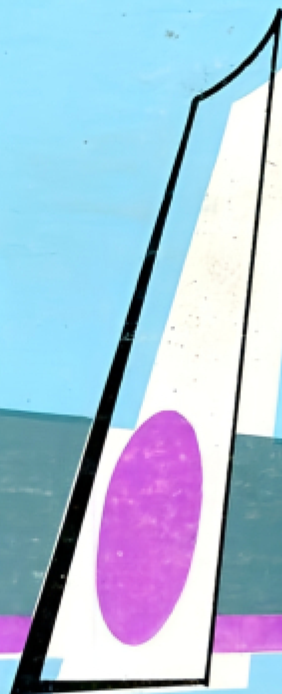
ابن الرومي

الشاعر المغبون

تأليف

جورج عبدو معتوق
مجاز في الآداب



دار الكتاب اللبناني — مكتبة المدرسة

ابن الرومي

الشاعر المغبون

تأليف
جورج عبدو معتوق
مجاز في الآداب

دراسات عليا في الفلسفة المشرقية

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
برقياً : كتالبان - بيروت
ص ب : ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٩٧٥

ابن الرومي

الشاعر المغبون

ابن الرومي

٨٣٥ – ٨٩٦ م. / ٢٢١ – ٢٨٣ هـ.

حياته من شعره

خصّ ابن الرومي حياته بقسمٍ من شعره ، سجّل فيه كثيراً من وقائع عمره . فجاء شعره تاريخاً صادقاً لحياته وصورة ناطقة بأخلاقه وصفاته . وهو كما يتضح من لقبـــه ونسبه ، رومي الأصل ؛ اسم جدّه جريج أو (جورجيوس) الرومي . ولا نعلم عن أسرته شيئاً يذكر ، إلا ان في بعض شعره تلميحاً الى ان أمّه فارسية الأصل :

كيف أغضي على الدنية والفر
سُ خؤولي والرومُ أعمامي

وكان فخوراً بنسبه الى اليونان كقوله من قصيدة في أبي سهل النوبختي :

ونحن بنو اليونان قومٌ لنا حجاً
ومجدٌ وعيدانٌ صلابُ المعاجم

وما تتراءى في المرايا وجوهنا

بلى في صفاح المرهفات الصوارم

وقوله في رجل طعن بشعره ووصمه بروميته :

قد تحسن الرومُ شعراً

ما أحسنته عُرَيبُ

يا منكرَ المجد فيهم

أليس منهم صُهَيبُ

مـــولده

ولد ابن الرومي في بغداد ، وفيها قضى حياته وتوفي . وكان شديد التعلّق بمدينته ، يكره الخروج منها ، كما يكره السفر عامة ، ولو في سبيل النجح والفوز ، حتى اذا دفع الى هجرة قصيرة المدى ، كإلى مدينة (سامرّا) مثلاً ، أخذ بالتشوّق والحنين ، حتى العودة الى وطنه . ويخبرنا في شعره انه عاش فقيراً ضيق العيش :

أيلتمسُ الناسُ الغنى فيصيبُهم

وألتمسُ القوتَ الطفيفَ فيلتوي؟

ويستجدي الكساء ليقيه برد الشتاء فيماطل حتى يخشى ان يأتي الصيف قبل ان يعطى بغيته فيقول :

إنّك إن ماطلتَني المواعِدا
وأضرمَ الصيفُ الأَجيجَ الصّاخِدا
جاء الكساءُ عند ذاك بارِدا

وترهقه الديون فيتذمر ويشكو :

وارتكابُ الديونِ إيايَ في
ظلّك يهجوكَ باللّسانِ الفصيحِ

ويستعطي درهمين في كل شهر من كل صديق :

ليَ في درهمين في كلّ شهرٍ
من فئامٍ ، ما يطردُ الحوجاءَ

ويظهر ان شاعرنا لم يكن موفقاً في حياته العائلية . فقد مات والده ، على الأرجح ، وهو صغير ، ولم يبق له غير أخ أكبر ، كان يعوّل عليه في الشدائد . على ان هذا توفي والشاعر لم يتجاوز الثلاثين كثيراً .

وكان لفقدهم تاثير عميق في نفسه . و[illegible]
النيران :

حدوثُ حوادثٍ منها حريقٌ ،
تَحَيَّفَ مــــا جمعتُ من الثَّراءِ

وكان له دار فاضطره احد « اللؤماء » الى بيعها :

ولي وطنٌ آليتُ أَن لا أَبيعَه
وأَن لا أَرى غيري له الدهرَ مالكا

وقد ضامني فيه لئيمٌ ، وعزّني ،
وها أَنا منه معصِمٌ بحبالكا

وتملــّك داراً أخرى فغصبته إياها (انثى) جهاراً وفي ذلك « أعجبُ معجب » :

تهضمني أُنثى ، وتغصبُ جهرةً
عقاري وفي هاتيك أَعجبُ معجِبِ

وصف نفسه في شعره فاذا هو : جميل ...
اللون ، أسود الشعر ، حسن القامة معدولها . وإذا هو دقيق
الحسّ ، عصبي المزاج ، كثير التردد والتشائم ، سريع الغضب ،
ولكنه سريع الرضى ، طيب القلب ، صفوح إذا ما استرضي .
وكان يحب الحياة ويتعشقها مع ما لقي فيها من بؤس وشقاء .
والحياة عنده ؛ لذة يتطلبها ويستمتع بها . واللذة عنده شهوة
الى الجمال يتبعه اينما بدا له . فيستعذبه في وجوه الملاح ، وفي
أصوات المغنين والقيان ، وفي الطبيعة ومـــا عليها من صور
وألوان . واللذة عنده شهوة الى المآدب ، فهو منهوم لا يشبع
من طعام وفواكه وشراب .

بيد ان الشاعر لم يوفق في حياته ، فلم ينل ما كان يؤمله من
المال والحظوة لدى ذوي الشأن . ولم يصل الى ما كان يطمح اليه
في المجتمع .

ورافق هذا الإخفاق ، ضيق في خلقه ، واضطراب في
أعصابه ، وخلل في مقاييسه العقلية ، وميل ساذج أخرق ،
الى التشاؤم والتطير ، كثرت فيه النوادر والأقاويل ؛ على شيب
مبكر ، وصلع فاضح بغيض ، في نظره ، كان يستحي به ،
فيعمل على ستره بعمامة :

عزمتُ على لبس العمامة حيلةً

لتسترَ ما جرّتْ عليَّ من الصّلع

الى أدواء وعلل متعاقبة ، ظاهرة وخفية وتـرّت حواسه ، وصفـرّت وجهه ، وأزاغت بصره ، وأضعفت سمعه ، وأوهنت قواه ، وقوّست ظهره :

وأَضحتْ قنـــاةُ الظّهر قوّسَ متنُها

وقد كان معدولاً ، وإن عشتُ فنخَّخا

وأحدثَ نقصانُ القوى بينَ ناظري

وسْمعي وبين الشّخصِ والصوت بَرزخا

وغربلت مشيته :

إنّ لي مشيةً أُغربلُ فيها

آمناً أَن أُساقطَ الأسقاطا

ونقلته من الشباب الى الشيخوخة ، فعلا رأسه المشيب وله من العمر احدى وعشرون سنة :

فظلمُ اللّيـــالي أنهنّ أشبنني

لعشرين يحدوهنّ حولٌ مجرَّمُ

وفاتـــه

مات ابن الرومي مسموماً . سمّه القاسم بن عبيد الله الوهبي وزير المعتضد ، فكان يخـــاف هجو الشاعر وسلاطة لسانه . فدعاه الى مائدته ، ودسّ عليه من اطعمه (خشكنانجة) ، وهي نوع من الحلواء ، مسمومة . فلما أكلهـــا أحسّ بالسم ، فقام . فقال له الوزير : الى أين ؟ فقال : الى حيث ارسلتني . فقال له : سلـّم على والدي . فقال ابن الرومي : ليست طريقي على النار .

على ان بعض الدارسين ، وفي طليعتهم عباس محمود العقاد ، يشكون في صحة هذه الحادثة بدليـــل ان عبيد الله ، والد الوزير المذكور ، كان لا يزال على قيد الحياة سنة وفاة الشاعر ، فلا معنى لقول القاسم : سلـّم على والدي .

وهناك رواية لابن رشيق في « العمدة » تطلعنا على ان عبيد الله أبا القاسم هو الذي أوعز الى ولده بأن يتخلص من الشاعر لأن لسانه أطول من عقله .

ثقافتـــه

جاء في دائرة المعارف[1] ان الشاعر تثقف بثقافـــة عصره الشاملة : لغةً ، ونحواً ، وأدباً ، وعلوماً أصيلة ، وعلوماً دخيـــلة كذلك حتى المنطق ، والرياضيات ، والطبيعيات ، والنجوم ، والفلسفة في تشعباتها الدينية والمدنية ، وما يتصل بهذه المنقولات من أساطير اليـــونان ، وحكايات الفرس ، ومرويّات الهند ، الى سائر ما كانت تدور عليه ، في تلك البيئة المختمرة ، مباحثات رجال الفكر . وكان ابن الرومي يخالطهم ، ويساجلهم ، ويناقشهم ، حتى نسبه المعري الى تعاطي الفلسفة ، وقال المسعودي ان الشعر « كان أقلّ أدواته » .

اما في الشعر فكان معجباً بالأخطل التغلبي . واما في النثر فكان معجباً بالجاحظ :

ألم تجدوني آل وهبٍ لمدحِكم
بشعري ونثري أخطلاً ثم جاحظَا ؟

أدبـــه

لابن الرومي ديوان ضخم في الشعر . جمعه أبو بكر الصولي ورتبه على حروف المعجم ، وطبع الجزء الأول منه في القا

---

١ ــ دائرة المعارف ص ١٢١ ف. أ. ب.

سنة ١٩١٧ مع شرح للشيخ شريف مسلم. ثم نشر كامل كيلاني، مختارات من شعر ابن الرومي، جعلها ثلاثة أجزاء في مجلد واحد، وصدّرها الاستاذ عباس محمود العقاد بمقدمة في عبقرية ابن الرومي.

وديوان ابن الرومي، يحوي جميع فنون الشعر العربي المعروفة من مدح وهجاء ورثاء وغزل ووصف وفخر وعتاب وطرد ... وله في النثر رسائل صغيرة الى الوزير القاسم والى بعض أصدقائه. ومنها نبذة في تفضيل النرجس. ونثره على العموم، حسن الأسلوب متين العبارة شبيه بأسلوب الجاحظ.

شعره وشاعريته:

قال ابن خلكان في (وفيات الأعيان): هو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكامنها ويبرزها في أحسن صورة، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه الى آخره ولا يبقي فيه بقية.

وقال ابن رشيق في (العمدة): وكان ابن الرومي ضنيناً بالمعاني، حريصاً عليها. يأخذ المعنى الواحد ويولّده، فلا يزال يقلّبه ظهراً لبطن، ويصرّفه في كل وجه، والى كل ناحية حتى يميته، ويعلم انه لا مطمع فيه لأحد. وقال أيضاً: واما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه، وحسن افتنانه.

وجاء في الموسوعة اللبنانية : وهذا الشعر متنوع الأغراض، وان كان يجري في الظاهر على الأنواع المصطلح عليها قديماً كالمدح ، والهجاء ، والرثاء ، والغزل ... الا انه يخالف شعراء العرب قاطبة في النظرة الفنية الى الشعر ، وفي عملية اخراجه تصميماً وتأليفاً . فليس الشعر في نظره أسلوباً من الكلام فائقاً في مدح شخص أو هجائه أو رثائه ، أو في وصف حالة ، أو في ابداء رأي . انما هو التعبير عن شخصيته في متقلّب صروف الحياة عليها . يقرض الشعر كما يأكل ويشرب ، وينام ويفكر ، ويحدّث . حاجته اليه حاجته الى التنفس والغذاء ، وسائر مقوّمات العيش . له في نظمه وتذوّقه لذة تعادل لذائذه المادية استمتاعاً حتى التهالك والاستهتار . فلا فاصل في حياته ، بين اللذائذ ، ولا تمايز ، ولا تنسيق ... حتى ليصح القول : ان شعر ابن الرومي انما هو شخصيته منظومة بإخلاص، وصراحة، وطبعية [1] .

مزاياه الفنية

يرى الدكتور أنيس الخوري المقدسي ان شعر ابن الرومي يمتاز بأربع مزايا [2] .

---

١ – دائرة المعارف ص ١٢٣ ، ف. أ. ب.

٢ – أمراء الشعر العربي ، ص ٢٤١ .

١ – طول النفس :

ونريد به مقدرة الشاعر على الإسهاب في النسج دون تعب أو تكلّف ظاهر . فإنك لا ترى لشاعر عربي مـــا تراه لابن الرومي من كثرة المطوّلات التي تتجاوز المئة والمئة والخمسين بيتاً ، وأكثرها حسن السبك كثير الألوان المعنوية . وبديهي ان نجد في مطوّلات كهـــذه بعض الحشو والتكرار وشيئاً من السفسفة ، ولكنها عموماً تدل على غزارة مادته اللغوية وعلى مهارته في استخدام الألفاظ لمعانيه . فهو فياض كثير الإطناب والمراجعة بعيد المدى في ميدان النظم ، ولكنه لا يصل الى آخر مداه منهوكاً مقطوع النفس ، ولا تشعر في شعره بتكلّف مضنٍ أو جهادٍ عنيف .

٢ – استيفاء المعنى :

وقد عبّر عن ذلك ابن خلّكان في وفيات الأعيان إذ ينعت ابن الرومي : بالشاعر المشهور ، صاحب النظـــم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكامنها ، ويبرزها في أحسن صورة . ولا يترك المعنى حتى يستوفيه الى آخره ، ولا يبقي فيه بقية .

وكذلك قول ابن رشيق القيرواني[1] : « يأخـــذ المعنى

---

١ – من كبار أدباء العربية القدامى في المغرب . له كتاب شهير في النقد الأدبي « العمدة » .

الواحد وبولّده ، فلا يزال يقلّبه ظهراً لبطن ويصرّفه في كل وجه والى كل ناحية حتى يميته ويعلم انه لا مطمع فيه لأحد » .

ومثال ذلك قول ابن الرومي في الصداقة والصديق :

عدوّكَ من صديقِـــكَ مُستفادُ
فلا تستكثرَنَّ من الصّحـــابِ
فإنّ الداءَ أكثر ما تراهُ
يكونُ من الطّعام أو الشّرابِ
اذا انقلب الصّديقُ غدا عدوًّا
مبيناً ، والأُمورُ إلى انقـــلابِ
ولو كان الكثيرُ يَطيبُ كانتْ
مصاحبةُ الكثير من الصّوابِ
ولكنْ قلّما استكثرتَ إلا
سقطتَ على ذئـــابٍ في ثيابِ
فدعْ عنك الكثيرَ ، فكم كثيرٍ

وما اللّججُ المِلاحُ بمروياتٍ ،

وتلقى الرِيّ في النّطفِ العذابِ

فإذا تأملنا هذه الأبيات وجدنا ابن الرومي يستهلها بفكرة أوحت بها اليه تجاربه المرة في الحياة وهي : ان الانسان لا يكتسب الأعداء إلا من الأصدقاء ، فعليه ان لا يستكثر من الأصحاب . ثم يجعل باقي الأبيات شرحاً وبسطاً لهذه الفكرة ، وقياسات يضربها لنا براهين على صواب رأيه .

وهكذا نفهم قول ابن رشيق : «يقلّب المعنى ظهراً لبطن» كما ان النقاد أجمعوا على ان ابن الرومي شاعر معنى أكثر منه شاعر مبنى . بل هو في أحيان يستخف استخفافاً عجيباً ببلاغة التركيب كقوله :

وإخالُ الإيوانَ لو كان يَسعى

جاء سعياً إليك قبلَ الأَذانِ

ولوافاكَ كي تُهرجَ فيه

غير أنْ ليس ذاكَ في الإمكانِ

فالشطر الأخير من البيت الثاني : غير ان ليس ذاك في

الإمكان ، ضعيف جداً ، وهو بالنثر أشبه ، ولو حسب نثراً لكان كذلك ضعيفاً ركيكاً .

غير ان الاستاذ مارون عبود يرى ان ابن الرومي في اخراج صوره « كماصٍّ قصب السكر ، يظل في عراك مع تلك الألياف حتى يمتصّها ... لهذا نراه اذا ظفر بمعنى طريف لا يحصره في بيت واحد ، بل يشرحه بأبيات قليلة ، ويظل يفعل ذلك حتى يفقده روعته ، ويخسر جماله الفني ، فيبتعد صاحبه في هذا عن العرب الذين لا تروقهم الثرثرة ولا يحبون إلاالإيجاز... ولو شئت أن أنفي ما في طويلاته من مثل هذه الحماقات لما أبقيت إلا ربع ديوان ابن الرومي ولقلت له في قصائده تلك ما قاله هو لصاحب اللحية : ألقها عنك يا طويلة ... »[1]

٣ ـ دقة الاحساس بالمؤثرات الطبيعية :

ومما تميّز به شعر ابن الرومي ، دقة تصوير الشكل واللّون والحركة . كقوله في وصف الأحدب :

قصرتْ أخادُعه وغار قذالُه
فكأنّه متربّصٌ أن يُصفعا

---

١ ـ الرؤوس : ص ١٢٨ .

وكأنما صُفعتْ قفـــاه مرّةً

وأحسّ ثانيةً لهـــا فتجمّعا

وكذلك قوله في تشبيه البنفسج في بـدء تفتحه بـ « أوائل النار في أطراف كبريت » . ثم قوله في الخبـــاز الذي يرقق العجين أرغفة :

ما بينَ رؤيتها في كفّه كرةً

وبـــين رؤيتها قوراء كالقمرِ

إلا بمقدار مـا تنداحُ دائرةٌ

في صفحةِ الماء يُرمى فيه بالحجرِ

وكلها من التصوير الدقيق الغريب في دقته .

٤ — ميله الى تشخيص ما لا يعقل :

وميزة أخرى تميز بها ابن الرومي ، انه ينسب الى الجمـــاد وغير العاقل ، ما يختصّ به الأحياء والعقلاء . من ذلك قوله في الأرض إبّان الربيـع :

تبرّجتْ بعد حيـــاءٍ وخفرْ

تبرّجَ الأنثى تصدّتْ للذكـــر

هذا وقد أغرم ابن الرومي بالطبيعة فأحبّ الربيع والبساتين والأزهار ، وجداول المـــاء ، والطيور المغرّدة ، والنسمات العذاب ، والغروب الحزين ، والليـــالي الرقيقة ، والأسحار الناعمة . ولعلّه وجد فيها عزاء عمّا لحق به من الغبن وقسوة الأقدار ، فتفنن في وصفها ، وبثّ فيها أحياناً حياة من الحياة البشرية ، فنسب إليها ما ينسب الى البشر من أفعال وأحاسيس ، فاذا الشمس عند الغروب « تودّع الدنيا لتقضي نحبهـــا » واذا زهر الحديقة يبتلّ بالندى « كما اغرورقت عين الشجي لتدمعا » واذا الموقف كله موقف « فراق عاجل بين حبيبين متصافيين » .

وهكذا يتضح لنا ان ابن الرومي كان أطول الشعراء نفساً ، وأكثرهم اختراعاً للمعاني ، واستيفاء لها ، وأبعـــدهم نظراً في دقائق الأشياء ، وأقدرهم على تشخيص ما لا يعقل ، وأقربهم الى وحدة الموضوع .

مختارات
من شعر ابن الرومي

نثبت في هذه المختارات أشهر ما نظم ابن الرومي
في الوصف والرثاء والهجاء

الوصف

لقد غلب فنّ الوصف والتصوير، على جميع أغراض شعره. فابن الرومي وصّاف في مدحه ورثائه وعتابه وهجائه وغزله ... وذلك ليس عن تعمّد مصطنع، بل عن تأثر بالجمال أو القبح، وتعبير لما يختلج في صدره من عوامل الإعجاب أو النفور؛ وان غلب الوصف على شعره فلأنه غلب عليه إحساسه بالوجود وشعوره بالحياة. فلم تكن عينه وأذنه وجميع حواسّه، إلا أدوات تنقل الواقع الحسي، الى قوى داخلية مرهفة الإحساس، سريعة التجاوب، قوى تتناول الواقع بشغف، وتدفعه الى خيال خصب وثاب، يعيده الى حيّز الوجود، بلباس من الروعة والحيوية. فالذي يعين ابن الرومي على قدرة الوصّاف فيه، عين المصوّر وريشته، فكأنه كله عيون تنظر الى الحياة، من كل زاوية، كما كان كلّه شهوات، حين يأكل وحين يشرب وحين يجلس الى مائدة، فيصوّر ما فيها من أطايب الطعام. إلا ان طبيعة ابن الرومي في « التصوير والوصف قد غلبتها مداخل الصناعة، أو غشيتها اعتبارات الهوى الجامح حيناً، وخطرات الوساوس أحياناً ... ان

الاصالة والطبع ، قد يبدوان في أوصاف ابن الرومي وصوره وتصويره ، إلا ان الصناعة واظهار المقدرة قد يبدوان كذلك . ولكنه على كل حال – بين الطبع والصنعة – قد ترك لنا أوصافاً تجعله من كبار الوصافين »[1] .

ويقول الدكتور طه حسين[2] : نظرة ابن الرومي الى الأشياء، ونظرته الى الطبيعة ، وتفكيره فيما يفكر فيه من المعاني ، كل هذا يخالف المألوف عند الشعراء المتقدّمين والمعاصرين ... ابن الرومي كان قويّ الخيال ، وكان خياله بعيداً ليس بالقريب ، وكان حادّ الحسّ جداً ، وكان قويّ الشعور ، فكان اذا ألمّ بمعنى من المعاني تأثر به تأثراً واضحاً . وربما كان أحسن ما يصوّر لنا خاصيّة ابن الرومي أو خصائصه في الشعر أن نقف وقفة قصيرة عند شيء من شعره لنرى انه كان يمتاز من الذين عاصروه ومن الذين تقدموه في الفكرة والعاطفة والأسلوب .

---

١ – ابن الرومي . محمد عبد الغني حسن .

٢ – د. طه حسين : من حديث الشعر والنثر .

روضة الربيع

وَرياضٍ تَخايَلُ الأَرضُ فيها ،
خُيَلاءَ الفَتــاةِ في الأَبرادِ[1]

ذاتِ وَشْيٍ ، تناسَجَتْهُ سَوارٍ
لَبِقاتٌ بِحَوْكِهِ ، وَغَوادِ[2]

شَكَرَتْ نِعْمَةَ الوَليِّ على الوَسْميِّ ،
ثُمَّ العِهــادِ بَعدَ العِهادِ[3]

فَهيَ تُثْني على السَّماءِ ثَنــاءً
طَيِّبَ النَّشرِ ، شائِعاً في البِلادِ[4]

---

١ – تخايل : تتبختر . الأبراد ، واحدها برد : ثوب مخطط .

٢ – تناسجته : تشاركت في نسجه . سوار : غيوم الليل الماطرة . لبقات : حاذقات . حوكه : حياكته . غواد : غيوم الصباح الماطرة .

٣ – الولي : المطر الذي يسقط بعد الوسمي . على : بمعنى مع . الوسمي : أول مطر الربيع . العهاد ، واحدتها عهدة : أمطار الربيع بعد الوسمي .

٤ – النشر : الرائحة الطيبة .

من نَسيمٍ ، كأنّ مسراهُ ، في الأرواحِ ،

مَسْرَى الأَرواحِ في الأَجسادِ[1]

حَمَلتْ شُكرَها الرّياحُ ، فأَدّتْ

ما تؤدّيهِ ألسُنُ العُوّادِ[2]

مَنظَرٌ مُعجِبٌ ، تحيّةُ أنفٍ ،

ريحُها ريحُ طَيّبِ الأَولادِ

تَتَداعَى بها حَمائِمُ شَتّى ،

كالبواكي ، وكالقِيانِ الشّوادي[3]

مِنْ مَثانٍ مُتَّعاتٍ قِرانٍ ،

وفُرادٍ مُفَجَّعاتٍ وِحادِ[4]

١ – يقول : إن الرياض تشكر السماء برائحتها الطيبة التي ينشرها النسيم في البلاد فيحيي الأرواح كما تحيي الأرواح الأجساد .

٢ – العواد ، واحدها عائد : الزائر ، والمراد هنا الرسول .

٣ – تتداعى : يدعو بعضها بعضاً .

٤ – مثان ، جمع مثنى : أي اثنين اثنين . قران ، واحدها قرين : الزوج . الفراد : واحدها فرد وهو نصف الزوج . الوحاد ، جمع وحد : المنفرد بنفسه .

تَتَغَنّى القِرانُ منهُنّ في الأَيْكِ ،
وتَبكي الفِرادُ شَجوَ الفِرادِ[1]

[كان ابن الرومي في وصفه إما ناقلاً نقلاً آلياً تقليدياً، وإما مندفقاً على الخارج اندفاقاً رومنطيقياً . وقد تقلّب الوصف عنده ما بين النقل والاندفاق بحيث كان صلة بين القديم الآلي والحديث الانساني الذي يخلد بخلود الانسان] .

١ – الأيك : الشجر الملتف الكثير . الشجو : الشوط من البكاء .

قصيدة ابن الرومي

روضة الربيع

نظرة تحليلية

علاقة الشاعر بالطبيعة قديمة قدم الشعر ذاته، ولكنها تتخذ أشكالاً ودرجات مختلفة بالنسبة للعصر والوضع الاجتماعي ونفسية الشاعر وثقافته. في الجاهلية كانت مادية تمثلت في تشابيه ومقابلات حسية إذ لم يكن باستطاعة الشاعر أن يمزج نفسه بما يراه، فهو ينظر نظرات جزئية متفرقة تعتمد على التأثيرات الحسية المختلفة وعلى الخيال البصري القريب والذهن غير المثقّف وغير القادر على التجريد والادراك الكليّ. ذلك أن الحياة « الاجتماعية الجاهلية » لا تنفصل عن الطبيعة، وليس بينهما أي اختلاف أو تناقض. الطبيعة مسرح الحياة الجاهلية، يبحث فيها الشاعر عن أسباب عيشه ومنازل أحبّته ومراعي ماشيته، لذلك فهو يتناولها تناولاً حسياً مباشراً، فيصف الطلل والمطر والصحراء والسحاب وما الى ذلك...

وبتطوّر الحياة الاجتماعية وتعقّدها ينشأ لدى الشاعر احساس بالابتعاد عن الصفاء والعفوية والبراءة، يتحوّل الى شعور بالغربة والضياع والتوحّد. فكأن هذه الحياة الاجتماعية

قد تطوّرت وتعقّدت على حساب الشعور الفردي والغرائز الفردية التي هي قوام نفسية الشاعر . من هذا التناقض بين الحياة الاجتماعية والحنين الى السعادة والراحة والبراءة ينشأ « الشعور نحو الطبيعة » ، لم يعرف الشعر الجاهلي ولا الأموي تعبيراً عن هذا الشعور إلا في أبيات متفرقة ، ولم يكن بالامكان ظهوره إلا في العصر العباسي الذي عرف من الحضارة ومعقّداتها ألواناً كثيرة ، ولم يتحقق هذا الشعور تحققاً كاملاً إلا في شعر ابن الرومي لما عاناه من تجارب ومحن حلّت في نفس مفرطة الحساسية خلقت بينه وبين المجتمع ، بل بينه وبين الحياة صراعاً دائماً جعله يلجأ الى الطبيعة هرباً من ظلم الناس وقساوة المجتمع وغباوة الأقدار ، كما يتجسد ذلك في احدى أروع قصائده :

روضة الربيع .

يطالعنا في البيت الأول تشبيه الروضة التي جعلت الأرض تتخايل بالفتاة التي تتخايل بأثوابها . نتوقف عند التعبير الأول : « ورياضٍ » ، فنتذكر الكثير من الشعر القديم الذي يبدأ بحرف الواو . من ذلك قول أمرىء القيس [1] :

وليل كموج البحر أرخى سدوله ...

---

١ – شاعر جاهلي اشتهر بالوصف وهو أول من : وقف واستوقف وبكى واستبكى .

وقول طرفة [1] :

وَوَجهٍ كأنّ الشمسَ ألقتْ رداءها
عليه نقيّ اللونِ لم يتخدّدِ

وهو حرف جرّ زائد بمعنى « ربّ » يفيد التقليل كما يفيد التكثير . غير أنه قد يخرج في الاستعمال عن هاتين الدلالتين فيوحي بالتعظيم وبالمباشرة في تناول الموضوع وقد أصبح تقليداً دخل في الكثير من الشعر القديم . والتعبير المجازي « تخايل الأرض » في تشخيصه وإيحائه ليس مبتكراً ولا خارجاً عن نطاق المألوف .

ولكن الجديد الذي يحتويه هذا البيت قائم على التشبيه المعكوس الذي يرتقي من الطبيعي الى الانساني . ركن التشبيه العادي هو المشبّه والمشبّه به يـــأتي لإيضاح المشبّه وتثبيته وتقويته ، وإذا بنا في البيت الأول من القصيدة أمام مشبّه به هو الأساسي ، ومشبّه يأتي في الدرجة الثانية . فصورة الفتاة هي المستبدة في نفس الشاعر ، استعار لها من الطبيعة ، ما يوافقها ويجسّدها . هذا النوع من التشبيه يتفوّق على طبيعة التشابيه الجاهلية ، التي تعتمد عــادة على طرفين واضحين ، تربطهما صفة

---

١ – شاعر جاهلي من أصحاب المعلّقات . تميّز شعره بالحكمة وبنزعة وجودية مادية .

مشتركة واضحة . التشبيه الجاهلي جزئي وصريح ، لا تشترك فيه عناصر متعددة وقلما يعتمد على الواقع النفسي . فكأن نظرة الجاهلي الجزئية، ونزعته الحسيّة ، لا تسمحان له بشمول الرؤية وبإمكانية الانتقال من المادي الى النفسي ومن النفسي الى المادي . فالمشاركة غير مكتملة بين العالمين . يسهل على الشاعر الجاهلي أن يستعير لحبيبته أو لمظاهر جمالها، مظاهر طبيعية ويصعب عليه العكس، لأن ذلك يتطلب رؤية مكتملة، وحلولية فنيّة، وقدرة على التجريد ، غير متوفرة لديه . أسهل على الجاهلي أن يقول: الوجه كالقمر والشعر كالليل وعينا الحبيبة كعيني الغزال ... من أن يعكس التشبيه ، لأن عكس التشبيه ليس مجرد تركيب لغوي وتقديم لفظة وتأخير أخرى ، بقدر ما هو ارتقاء وشمول وتملّك الموضوع تملّكاً كاملاً من النفس .

النوع الأول من التشبيه قائم على النظرة الجزئية التحليلية ، في حين أن الثاني قائم على رؤية استيعابية، فكأن الأول يتمثّل في خط أفقي أو انحداري والثاني في خط استداري ارتقائي .

حتى ولو كان المشبّه معنوياً والمشبّه به مادياً كما في بيت زهير بن أبي سلمى [1] :

رأيتُ المنايا خبطَ عشواءَ من تصبْ
تمتْهُ ومنْ تخطئْ يعمَّر فيهرمِ

١ – شاعر جاهلي ، عمّر طويلاً ، امتاز شعره بالحكمة والتأمل .

فهو تشبيه عادي ومن طبيعة النوع الأول، لأنه ينحدر من المعنوي، الى المادي في نظرة جزئية متفهمة، أكثر مما هي رائية.

بعكس ذلك البيت الاول من قصيدة ابن الرومي ، فهو يقوم على « رؤيا » ولو لم تتحقق في استعارة كاملة ، فإن التشبيه الذي يعتمد على المصدر « خيلاء » بدل أداة التشبيه يجعل التشبيه بليغاً قريباً من الاستعارة .

وكأن هذه الصورة المنطبعة ، في مخيّلة ابن الرومي، صورة « الفتاة في الأبراد » تجسّدت في عنف ومباشرة ، في البيت الاول ، فاستراح الشاعر بعض الاستراحة ، لكي ينحدر بعد ذلك شيئاً فشيئاً ، الى التصوير الخارجي والتقرير العادي .

غير أن البيت الثاني ، يحتفظ ببعض خصائص البيت الاول النفسية ، ويهيىء للأوصاف المادية التالية في الآن ذاته . فالوشي والنسج ولباقة الحوك ، تلك الصفات التي ينسبها الى الرياض تنطبق هي ذاتها على الفتاة المتخايلة بأبرادها والتي يستحضرها الشاعر في خياله . فالصورة الأولى، تستمر في بعض جزئياتها، عن وعي أو غير وعي، في صورة الرياض. هي ألفاظ حضرية مستمدة من واقع البيئة العباسية، التي عرفت ألواناً من الزخرف والصنعة ، ومن ذوق الشاعر، الذي يستعذب هذا الجمال الحضري المصنوع وهذه المشاهد الموشّاة والمزخرفة ، التي كثيراً ما تطالعنا في شعره . بل ان البيت الثاني يذهب بنا الى

أبعد من ذلك ، وبعملية تداع خيالي طبيعي ترتبط في مخيلتنا لفظتا « سوار » و « غواد » أي غمامتا المساء والصباح ، بأبراد الفتاة فتتخذ الصورة شمولاً وبعـــداً كونيّين . ثم ان لفظة « تناسجته » تدل على المشاركة في النسج فتعطي صورة أكمل من الصورة في بيت أمرىء القيس :

... «لما نسجَتْه من جنوبٍ وشمألِ»

وفي البيتين التاليين نشعر بانحـــدار تدريجي الى الوصف الخارجي والتقرير النثري :

شكرتْ نعمةَ الوليّ على الوسميّ
ثمّ العِهادِ بعدَ العِهادِ[1]

فذكر أنواع الأمطار يدل على التفاتة ذهنية باردة بعيدة عن حرارة الجوّ الشعري الذي تمثّل في البيتين الأولين . غير أن البيت هذا يحتفظ ببعض الجمال في تعبير تشخيصي : « شكرت نعمة الولي » ، اذ يهب الشاعر الطبيعة صفـــة انسانية ، وفي موسيقى ناعمة تتولّد من توالي الياء المشددة في الوليّ والوسميّ في الشطر الأول وترداد العهاد في الشطر الثاني .

١ – الولي : المطر الذي يسقط بعـــد الوسمي . والوسمي أول مطر الربيع .

هذه الصناعة اللفظية كثيراً ما يلجأ اليها ابن الرومي في عصر شاعت فيه ألوان البيان والبديع ولم يعد الشعر نتاج الفطرة والعفوية بل يتردد بين الصناعة والتصنّع أحياناً كثيرة. غير أن الصناعة هنا ليست بعيدة عن الطبع، وان افتقر البيت الشعري الى جذوة الشعور ووهج الصورة، فهو يرفل بهذه المسحة الجمالية الأسلوبية.

وكذلك البيت الرابع :

فهيَ تثني على السماءِ ثَنـاءً
طيّبَ النشرِ شائعاً في البلادِ

هو استمرار للبيت السابق، بل انحدار عنه؛ استمرار في التعبير الأول :

« فهي تثني » الذي يقابل « شكرت نعمة الوليّ »، وانحدار الى النثرية في سائر البيت : « ثناء طيّب النشر شائعاً في البلاد ». فهو أقرب الى الحشو والكلام العادي.

ويعود الشاعر الى الارتفاع في البيت الخامس والتحوّل الى العالم النفسي :

من نسيمٍ كأنَّ مسراهُ في الأَرواحِ
مَسْرى الأَرواحِ في الأَجسادِ

غير أن الانتقال من جوّ التقرير النثري الى الجوّ المشحون بالوجدان لم يحدث فجأة بل مرّ في خطرة تجريدية . فقد جعل الشاعر النسيم لا يؤثر على الجسد فحسب بل ينال الروح ذاتها ، وان اعتمد هذا التعبير على التجريد فهو لا يبتعد عن الواقع النفسي ولا يفتقد حرارة الشعور . في لحظات الغبطة والنشوة يختلط الاحساس الجسدي بالشعور النفسي فلا يتميزان . فالشطر الأول ، رغم اعتماده على عملية ذهنية يحوي حسّاً شعرياً صادقاً، ولكن الشطر الثاني يجنح الى التجريد الصرف الذي يذكّرنا بالتعابير الفلسفية التي شاعت في الشعر العباسي بتأثير الفلسفة وعلم الكلام وهي تفتقر الى التـأثير والايحاء . يذكّرنا هذا البيت بأبيات كثيرة لأبي نواس[1] في وصف الخمرة من مثل قوله :

وتمشّتْ في مفاصِلِهم
كتمشّي البرءِ في السّقَمِ

أو :

فأرسلتْ من فمِ الأَبريقِ صافيةً
كأنّما أَخذُها بالعينِ إغفاءُ

١ — شاعر عباسي ، اشتهر بوصف الخمرة .

غير أن التشبيه في بيت ابن الرومي تشبيه ضمني مركّب متعدد الأطراف يستوقف الذهن وينبهه .

والبيت السادس يردّنا الى بيتين سابقين : فهي تثني ... شكرت نعمة الوليّ ...

حمَلَتْ شكرَها الرّياحُ فأدّتْ
مـــا تؤدّيهِ ألسنُ العوّادِ

فالأبيات لا تزال تتابع في تأليف داخلي يتمثّل في «الفاء» و « من » والضمائر التي تعود الى الرياض ، أي الى البيت الأول من القصيدة . وفي الشطر الثاني : « مـا تؤدّيه ألسنُ العوّاد » ارتقـاء الى المستوى الانساني في تعبير واقعي أليف مستمد من واقع الحياة ، حياة الشاعر ذاتها . فلفظة « عـــوّاد » كثيرة الورود في الشعر القديم ، ولكنها لم تتخذ في أي من الاستعمالات القديمة ما تتخذه هنا من قيمة شعرية ودلالة مباشرة على الواقع النفسي .

فهذه اللفظة تعود بنا الى ما عاناه الشاعر من أمراض حلّت به وبأسرته وذهبت بحيـــاة أبويه وأولاده وزوجته . فهو يستحضر « عوّاده » هم يؤاسونه ويخففون عليه مصابه ، وإذا باللفظة مستمدة مباشرة من تجربته الذاتية وليست استمراراً للاستعمال القديم .

ويتكامل الجو الشعري في أربعة أبيات منتزعة من صميم نفس الشاعر ، وقد اختلطت عليه حواسه ، واختلطت أحاسيسه بمشاعره وامتزج حاضره بماضيه ، ولحظات سعادته بأيام بؤسه ، وعنف شهوته بعاطفة الأبوة وبشعور الخيبة والحرمان ، وإذا بهذه الأبيات الأخيرة أشبه بمعزوفة مأساوية متعددة الأنغام بعيدة الايحاءات عنيفة الوقع تصوّر حياة نفس بكاملها ، بجميع آلامها وأمانيها وسعادتها المفقودة :

منظرٌ معجِبٌ تحيّةُ أنفٍ
ريحُها ريحُ طيّبِ الأولادِ

تتداعى بها حمائمُ شتى
كالبواكي وكالقيانِ الشوادي

جميع الحواس تشترك في عيش هذه اللحظات التي هي مزيج من متع حسية وروحية وتلهّف وأسف محرق . فكأن الانسان في ذروة نشوته ، ينطلق من صميم غبطته شعور بالزوال والحسرة والذكريات المؤلمة . فالمتعة يغلّفها جوّ من الكدر ، بل تتضمن شعوراً بالفاجعة يحرقها من داخل ، هو الشعور بعرضيّتها وهو الشعور بأنها متعة مؤقتة بل زائفة ، فينتصب شبح الماضي أمام عيني الشاعر بجميع مآسيه :

« منظر معجب تحيّة أنف » ...

تعبير ينطوي على إيحـــاء شديد . فاذا كانت « الروضة الأنف » هي التي لم يرع ولم توطأ ، فهو تعبير مجازي على أساس المعنى الحقيقي لحاسة الشم ترتقي الى الواقعية النفسية الفاجعة :

« ريحُها ريحُ طيّبِ الأَولادِ »

فامتزاج الحواس في تقبّل المشهد : النظر والشم ، يتـكامل في حاسة السمع :

تتداعى بهـــا حمائم شتى
كالبواكي وكالقِيانِ الشوادي

يوحي هذا البيت بتعـــدد الأصوات وتداخل الايقاعات حيث تكـــثر حروف المدّ (الألف) وتتكرر كاف التشبيه فتوحي بالثقل وبانقطاع النفس ثم استئنافه .

والنساء البواكي والقيان الشوادي صور منطبعة كذلك في مخيّلة الشاعر متملـّكة منها ، فهي جزء من حياته .

والبيت التاسع استمرار لهذا الجوّ النفسي ذاته في موسيقى ذات وقع رتيب ثقيل في تقطيعات متوازية ، يتـكامل في البيت الأخير :

تتغنّى القِران منهنَّ في الأَيكِ
وتبكي الفِرادُ شجو الفرادِ

وتتكرر في البيتين الأخيرين لفظة قران مع مرادفتها « مثان » كما تتكرر لفظة « فراد » ثلاث مرات مع مرادفتها « وحاد » ، وهي تدل على عنف الشعور بالوحدة والحنين الى إلف أو حبيب . غير أن لفظة « فراد » الأخيرة تبدو لنا مختلفة عن « فراد » الأولى . ففي حين أن الأولى جمع فرد ، نرجح أن تكون القافية مصدر فرد ذا الدلالة المجردة بمعنى الانفراد وان لم يشر أحد اليها أو كانت نادرة الاستعمال .

ان الشاعر في هذه القصيدة عاش في الطبيعة ما لم يستطع عيشه في حياته . رأى في الطبيعة اشباعاً لجميع غرائزه وتحقيقاً لجميع أمانيه . أشبع جوع حواسه : في المشهد الجميل متعة العين ، والأصوات الرائعة متعة الأذن ، والرائحة الطيّبة متعة الأنف بل متعة عاطفة الأبوة ، كما أشبع شهوة الحبّ ، وعاش الالفة والصدق وعرفان الجميل والشكر والنعمة والثناء ... لذلك تبدو لنا هذه القصيدة أقرب ما تكون الى نفس ابن الرومي اذ تتضاءل فيها نواحي التقليد . غير أن الشاعر لم يتنكر لحياته الاجتماعية ، ولم يلق في الطبيعة بديلاً كاملاً عنها ،

فهو شديد الأسف على ما لم يستطع الحظوة به ، شديد اللهفة لتحقيقه . لم يجد في الطبيعة تعويضاً كاملاً عمّا يفتقده ، بل هو متنازع بين لحظة التعويض وعنف اجتذاب الحياة له بجميع مغرياتها .



روضة المساء

من قصيدة وصف بها الصيد ، وتطرق
الى ذكر غروب الشمس :

وقد رَنّقَتْ شمسُ الأَصيلِ ، ونَفّضَتْ
على الأُفقِ الغَرْبيّ وَرْساً مُزَعْزَعا[1]

وَوَدّعتِ الدّنيا ، لتَقضِيَ نَحْبَها ،
وشَوّلَ باقي عُمْرِها ، فتَشَعْشَعا[2]

ولاحظَتِ النُّوّارَ ، وهيَ مريضَةٌ ،
وقد وَضَعَتْ خدًّا إلى الأَرْضِ أضرَعا[3]

كما لاحظَتْ عُوّادَهُ عَينُ مُدْنَفٍ ،
تَوَجّعَ مِنْ أَوصابِهِ مـا تَوَجّعا[4]

---

١ – رنقت : ضعف بصرها وجسمها . الأصيل : العشي . الورس : نبات أصفر .

٢ – شول : ارتفع . باقي عمرها : أي الشفق الذي تتركه مرتفعاً فوقها وهي تنحدر الى الغروب . تشعشع : بقي منه قليل .

٣ – النوار : الزهر الأبيض . الأضرع : أي الأذل الأخضع .

٤ – العواد : زوار المريض . المدنـف : المريض المشرف على الموت . الأوصاب : الأمراض .

وَظَلّتْ عيونُ النَّوْرِ تَخْضَلّ بالنّدى ،
كما اغْرَوْرَقتْ عَينُ الشّجيّ لتَدْمَعا [1]

يُراعينَها صُوراً إليها رَوانِياً ،
ويَلْحَظْنَ ألحاظاً مِنَ الشّجْوِ خُشَّعا [2]

وبَيّنَ إغضاءُ الفِراقِ عليهِما ،
كأنّهُما خِلاّ صَفاءٍ تَوَدّعا [3]

وقدْ ضرَبَتْ في خُضْرَةِ الرَّوضِ صُفرَةٌ ،
من الشّمسِ ، فاخضَرّ اخضراراً مُشعشَعا [4]

---

١ ـ النور : الزهر . تخضل : تبتل . الشجي : المهموم الحزين .

٢ ـ صوراً ، واحدها أصور ، يقال رجل أصور الى كذا : اذا مال عنقه ووجهه إليه . روانياً : مديمة اليها النظر بسكون الطرف . الشجو : الحزن . خشعاً : ضارعة ذليلة .

٣ ـ الإغضاء : الإظلام .

٤ ـ ضربت : مالت . مشعشعاً : ممزوجاً ، أي ممزوجاً بالصفرة .

وأذكى نَسيمُ الروضِ رَيْعانَ ظِلّهِ ،
وغَنّى مُغَنّي الطّيرِ فيــهِ ، وسَجّعا[1]

وغَرّدَ رِبعيُّ الذّبابِ خِــلالَهُ ،
كما حَشْحَثَ النّشوانُ صَنجاً مُشَرَّعا[2]

فكانَتْ أرانينُ الذّبــابِ هُناكُمُ ،
على شَدَواتِ الطّيرِ ، ضَرْباً مُوَقّعا[3]

وفاضَتْ أحاديثُ الفُكاهاتِ بَينَنا ،
كأحسَنِ مــا فاضَ الحَديثُ وأمْتَعا

---

١ – أذكاه : جعــل رائحته ذكية . الريعان : أول الشيء وأفضله . ظله : أي ظل الاخضرار المشعشع . سجع : ردد صوته .

٢ – الربعي : نسبة الى الربيع . حشحث : حرك . الصنج : آلة بأوتار يضرب بها . المشرع : المشدود الأوتار .

٣ – الأرانين : الأصوات لها رنة كرنة القوس . هنا كم : هناك .

وحيد المغنية

من قصيدة يتغزل فيها بالمغنية
وحيد ، ويصف غناءها :

يا خليليّ ! تيّمَتْني وحيدُ
ففؤادي بها مُعَنًّى عَميدُ[1]

غادَةٌ ، زانَها مِنَ الغُصْنِ قَدٌّ ،
ومنَ الظّبي مُقلَتان وجيدُ[2]

وزَهاها ،من فَرْعِها ومنَ الخَدّين ،
ذاكَ السّوادُ والتّوْريدُ[3]

فهْيَ بَرْدٌ بخَدّها وسَلامٌ ،
وهي للعاشقينَ جَهْدٌ جهيدُ[4]

---

١ – تيمتني : استعبدتني بحبها . المعنّى : المحزون . العميد : الشديد الحزن الذي هدّه العشق .

٢ – الغادة : المرأة الناعمة .

٣ – الفرع : الشعر التام . زهاها : زانها . التوريد : الاحمرار .

٤ – الجهد : التعب والمشقة ، وجهد جهيد : للمبالغة .

وغَريرٍ بحُسنِها قالَ : صفها !
قلتُ : أمرانِ لَيّنٌ وشديدُ [1]

يَسهُلُ القولُ : إنّها أحسنُ الأشياء
طُرًّا ! ويَصعُبُ التّحديدُ

تتَجَلّى للنّاظرينَ إلَيها ،
فشَقيٌّ بحُسْنِها ، وسَعيدُ

ظَبيَةٌ تَسكُنُ القُلوبَ وتَرعاها ،
وقُمْرِيّةٌ لَها تَغريدُ [2]

تَتَغَنّى ، كأنّها لا تُغَنّي ،
من سُكونِ الأوصالِ ، وهيَ تُجيدُ

---

١ – الغرير : المغرور ، وهو المخدوع أي الذي أطمعه حسنها فيها على غير مطمع .

٢ – القمرية ، مؤنث القمري : ضرب من الحمام حسن الصوت .

لا تَراها ، هناكَ ، تَجحَظُ عَينٌ
لكَ ، منها ، ولا يَدِرّ وَريدُ[1]

من هُدُوٌّ ، ولَيسَ فيه انقِطاعٌ ،
وسُجُوٌّ ، ومـا به تَبليدُ[2]

مَدَّ في شأو صَوْتِها نَفَسٌ كافٍ ،
كأنْفاس عاشِقيها مَديدُ[3]

وأَرَقّ الدّلالُ والغُنْجُ مِنْهُ ،
وبَراهُ الشّجا ، فكادَ يَبيدُ[4]

---

١ — يقول : إذا غنت لا تجحظ عيناها من التعب . يدر : يظهر ويتوتر ويتحرك . الوريد: عرق في العنق يمتلىء دماً .

٢ — السجو : مد الصوت بالحنين وهنا مده بالغناء . تبليد: تردد وتحير . عدم الإجادة .

٣ — الشأو : الغـاية والمدى . كأنفاس عاشقيها مديد : أي في حنينهم المتواصل إليها .

٤ — براه : أضعفه . الشجا : يريد ما يعترض الصوت من الغصة المستحبة في الغناء .

فتراهُ يَمُوتُ طوراً ، ويَحيا ؛
مُستَلَذٌّ بَسيطُهُ والنّشيدُ [1]

فيه وَشيٌ ، وفيه حَليٌ منَ النّغْم
مَصوغٌ ، يَختالُ فيه القَصيدُ [2]

طابَ فُوها ، وما ترَجّعَ فيه ؛
كلُّ شيءٍ لها بذاكَ شَهيدُ ! [3]

في هَوَى مِثْلِها يَخِفّ حَليمٌ
راجِحٌ حِلمُهُ ، ويَغوي رَشيدُ [4]

ما تَعاطى القُلوبَ ، إلاَّ أصابَتْ
بهواها ، مِنهُنّ ، حيثُ تُريدُ [5]

---

١ – البسيط : ما يمتد به الصوت . النشيد : رفع الصوت والترنيم .

٢ – الوشي : نقش الثوب . حلي : زينة . يختال : يتزين .

٣ – فوها : فمها . ما ترجع فيه : صوتها .

٤ – يخف يذهب حلمه ، ويفقد ما عنده من رصانة وصواب . الحليم : العاقل الرصين . يغوي : يضل .

٥ – تعاطى ، تتعاطى .

وَتَرُ العَزْفِ ، في يديها ، مُضاهٍ

وتَرَ الرّجف ، فيه سَهمٌ شَديدُ [1]

عَيْبُها أنّها ، إذا غَنّت الأحرارَ ،

ظَلّوا ، وهُمْ لَدَيها عَبيدُ

واستَزادَتْ قُلوبُهُمْ مِن هَواها ،

برُقاها ، وما لَدَيْهِمْ مَزيدُ [2]

لَيتَ شِعْري ، إذا أدامَ إلَيها

كَرّةَ الطّرْفِ مُبدئٌ ومُعيدُ [3]

أهيَ شيءٌ ، لا تَسأمُ العَينُ منهُ ؟

أمْ لها ، كلَّ ساعةٍ ، تجديدُ ؟

---

١ – يقول ، إن وتر العود الذي تعزف عليه يحاكي في ارتجافه وتر القلوب المرتجفة ، فكأن فيه سهماً قوياً ، فكلما عزفت عليه انطلق السهم فأصاب أوتار القلوب فأرجفها .

٢ – الرقى ، واحدتها رقية ، العوذة التي يرقى بها .

٣ – الكرة ، التكرار . المبدىء ، من يفعل الشيء ابتداء . المعيد ، المكرر .

بل هيَ العيشُ ، لا يزالُ متى استُعرض
يُمْلي غرائِبـــاً ويُفيـدُ[1]

مَنظَرٌ ، مَسمَعٌ ، مَعانٍ من اللّهو ،
عَتادٌ لِمـــا يُحَبّ ، عَتيدُ[2]

لا يَدِبّ المَلالُ فيها ، ولا يَنقُصُ
مِنْ عَقْد سِحرها تَوكيدُ[3]

أَخذَ الدّهرُ يا وَحيدُ ، لقَلبي ،
منكِ ، ما يأُخذُ المُديلُ المُعيدُ[4]

---

١ – استعوض : سئل أن يعرض ما عنده .

٢ – العتاد : العدة . العتيد : الحاضر المهيأ . يعني انهـا تجمع الشكل الحسن والصوت الجميل .

٣ – عقد سحرها : إشارة الى سحر جمالها وصوتها . توكيد ، من أكد الشيء : شده وأوثقه .

٤ – المديل : الذي يجعل الأيام مداولة بين الناس ، أي يقلبها عليهم من حال الى حال . المعيد : الذي يعيد الشيء الى مكانه . المعنى : أن حظه منها متقلب بين ألم وأمل .

حظُّ غَيري من وَصْلِكُم قُرّةُ العين

وَحظّي البُكاءُ والتّسهيدُ

غيرَ أنّي مُعَلَّلٌ منكِ نَفسي

بعِداتٍ ، خِلالَهُنّ وعيدُ[1]

ما تَزالينَ ، نَظرَةٌ مِنكِ موتٌ ،

لي مُميتٌ ، ونَظرَةٌ تَخليدُ

نَتَلاقَى ، فلَحظَةٌ منكِ وَعْدٌ

بوصالٍ ، ولَحظَةٌ تَهْديدُ

قد تركْتِ الصّحاحَ مَرْضَى ، يميدون

نُحُولاً ، وأنتِ خُوطٌ يَميدُ[2]

---

١ – العدات ، واحدتها عدة : الوعد .

٢ – يميدون : يميلون . الخوط : الغصن الناعم . يقول : هي نحيلة القوام كالغصن المائل ، ولكنها مع ضعفها ، تركت صحاح الأجسام مرضى يميلون نحولاً .

والهَوَى ، لا يَزالُ فيه ضَعيفٌ ،

بَــينَ ألحاظِه صَريعٌ جَليدُ[1]

ضافَني حبُّــكِ الغريبُ فألوى

بالرّقادِ النسيبِ فهو طريدُ[2]

عجبــاً لي إنَّ الغريبَ مقيمٌ

بين جَنبيّ والنسيبُ شريدُ

قد مَللْنا من سَتْر شَيءٍ مَليحٍ

نَشتهيهِ ، فهــل له تجريدُ

هو في القلبِ ، وهو أبعدُ من نجمِ

الثريا ، فهو القريبُ البعيدُ

---

١ – ضعيف : أي حبيب ضعيف . الجليد : ذو القوة والصبر . وقوله صريع جليد : أراد به العاشق .

٢ – ألوى به : ذهب .

وحيد المغنية

نظرة تحليلية :

يبدأ الشاعر قصيدته بمناداة « خليليه » في بوح مباشر، بحبه وعذابه :

يا خليليّ تيّمتني وحيــدُ
ففؤادي بهــا معنّى عميدُ

من الطبيعي أن يتذكر القارىء لدى تلاوته لهـــذا المطلع بعض المطالع الشعرية القديمة التي تكرست تقليداً بعد استهلال امرىء القيس معلقته بقوله :

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
بسقطِ اللّوى بينَ الدخولِ فحوملِ

ولكن هذا التشابه في المخاطبة لا يقودنا حتماً الى وسم بيت ابن الرومي بسمة التقليد والتشديد على نزعتـــه التقليدية . والواقع أن من يتأمل هذا التعبير وما يليه في سائر البيت ، يشعر بالبوح الصادق والاعتراف المباشر عبر ألفاظ وتعابير تقليدية كثيرة التكرار في الشعر الجاهلي والأموي . حتى أن

التقليد لا يقتصر على التعبير الأول : يا خليليّ ، بل هو ظاهر في تعابير « تيّمتني » ، « معنّى » ، « عميد » وهي ألفاظ كثيرة الورود في الشعر القديم . ولكن رغم ذلك ، فإن الشعور الغالب الذي يفوح من هذا البيت ، هو شعور عفوي ، صادق مؤثر من خلال ألفاظ وتعابير مألوفة لا ابتكار فيها . والواقع أن من يعبّر عن شعور عفوي لا يجد في متناوله غير ألفاظ عادية شائعة . فمن الاستعمالات المجازية المألوفة في اللغة العربية أن يستعمل المثنى ويقصد المفرد ، أو يستعمل المثنى ويقصد الجمع ، أو يخاطب المفرد ويخاطب المثنى مخاطبة شكلية ، ولا تكون إلا من أساليب البوح والمناجاة .

غير أن ما يعكّر على هذه المناجاة بعض صفائها ، ارتباط الشطرين بحرف عطف للسبب « الفاء » . هذا الحرف لا يدل على روح منطقي كما قد يظن البعض ، فيجعل الشطر الثاني نتيجة حتمية للشطر الأول ، إذ ان المنطق ليس بارزاً الى هذا الحد ، ولا يحوي البيت الشعري فكرة بالمعنى الصحيح ليحتمل أسلوباً منطقياً . فهذا الحرف أقرب الى الحشو ، وأدل على عثرة فنيّة صغيرة ربما اضطر اليها الشاعر لاستقامة الوزن فأحدث بعض النفور وخصوصاً في اتصاله بحرف « فاء » آخر : ففؤادي . هذا الاضطراب وهذه العثرات الفنيّة كثيراً ما تطالعنا في شعر ابن الرومي .

بعد هذا الاعتراف بما يعانيه الشاعر من حبّ وحيد ، ينتقل

الى وصفها وكأنه يقصد الى تبرير هذا الحب وهذا العذاب ، وإثبات ان معشوقته موضوع إعجاب ، فهي :

غادةٌ زانها من الغصنِ قدٌّ
ومن الظّبيِ مقلتانِ وجيدُ
وزهاها من فرعها ومن الخدّين
ذاك السواد والتوريدُ

لا يزال الشاعر بالاعتماد على وسائل التعبير المألوفة يعبِّر عمَّا يعانيه من هذا الجمال . فهو يعتمد على تشابيه قديمة يحيلها في صناعة فنيَّة دقيقة الى استعارات مؤلفة تأليفاً في تقديم وتأخير ، واعتماد الطباق ، دون أن تمحو الصناعة طابع القديم والحسيّة ، وإذا بها استعارات أقرب الى التشابيه ، وذلك لوضوح الشبه ، وقرب المشبّه من المشبّه به رغم الإيجاز في حذف الأداة وحذف الصفة ، في البيت الثالث :

وزهاها من فرعها ومن الخدينِ
ذاك السّوادُ والتوريدُ

التفات وتنبيه في تأخير فاعل زهاها (ذاك السواد) وقد فصل بين الفعل والفاعل بتعبيرين : (من فرعها ومن الخدّين) ،

كما أن فيه التفاتاً في ارجـــاع السواد الى الفرع والتوريد الى الخدّين .

هي صناعة فنيّة دقيقة ، وفـّق الشاعر في احداث بعض التأثير في النفس رغم اعتماده على وسائل التعـــبير والتشبيه التقليدية .

وكأنّ الشاعر يقف مستدركاً بعد أن بـــدأ بوصف جمال المغنية ، متسائلا هل بإمكانه أن يصف هذا الجمال ويأتي على مجمل وجوهه ويفيه حقـّه ؟ وعندما يشعر بتعذّر ذلك يحاول أن يجد حجـّة لاستمراره في الوصف رغم عجزه ، وتبريراً لهذا العجز ، فيضع الكلام على لسان شخص يسأله أن يصفها له . ولنا أن نتأمل هذا الأسلوب ، فلا نؤخذ بظاهره وبواقعيته ، وبكون سائل حقيقي يسأله ، بقدر ما يظهر لنا أسلوباً من أساليب التعبير وإكساب القصيدة نغمة جديدة وبعداً جديداً :

وغريرٍ بحسنها قال صِفْها

قلتُ أمران : بيّنٌ وشديدُ

هي وسيلة فنيَّة يلجأ اليها الشاعر ليفسح لنفسه مجال القول: ان وصفها سهل وصعب في آن واحد .

تستوقفنا لفظة « غريرٍ » التي تدل أصلاً على الجاهـــل

والمغرور والمخدوع ولكن هذا المعنى للـّفظة لا يتفق مع سائر البيت ومع ما سبقه ويليه ، اذ ان من يؤخذ بهذا الجمال الغامر الساحر لا يصح أن يوصف بأنه جاهل ومخدوع . فاللفظة تحتمل معنى مجازياً آخر على أساس هذا المعنى . الغرير : كالغرّ ، وهو الشاب الذي لا تجربة له ، الذي يميل مع الهوى ، فبهذه الدلالة يستقيم معنى البيت وينسجم مع سائر الأبيات السابقة والتالية .

ان هذا الحوار الخاطف ، كما يبدو لنا ، قائم في نفس الشاعر ذاته ، وما ادخال هذا العنصر الخارجي إلا تجسيد للصراع الذي يعانيه وإبراز له ، وفي هـــذا التجسيد والإبراز بعض البعد ، فلحظة من الاطمئنان :

يَسهُلُ القولُ : إنّها أحسنُ الأَشياءِ
طــرّا ! ويصعُبُ التحديــدُ

الشاعر في صراع بين احساس عارم بالجمال يغمره فيعيش لحظاته بجميع حواسه ، وبين محاولة لوعي هذا الجمال وتفسيره وإدراك جوهره . فهو لا يكتفي بإعلان دهشته وذهوله ، ولا يكتفي في أن يمتع نظره وخياله ، بل يريد أن يتمتع عقـــله كذلك ، ولا تتم متعة العقل إلا بالتفسير والتعليل ، وأنـّى للجمال أن يخضع لأسلوب المنطق وأحكامه . الاكتفاء ، وتناغم الحياة الشعورية يخلقان الاطمئنان في حين أن التطلب ومحاولة

اشراك جميع القوى النفسية في تقبّل حالة مـــا وفهمها فهماً عميقاً ، يخلقان التنافر والصراع ، وإذا بالشاعر في صميم مأساة . لعل ابن الرومي لو لقي من معشوقته ما يتمناه من وصال أو لو جادت عليه بالتفاتة حنان ، لاكتفى بهذا الشعور الغامض وما تطلـّب أبعد منه ، غير أن حرمانه والصدّ الذي لقيه منها ، ولـّدا في نفسه ميلاً عنيفاً لإخضاع هذا الشعور للعقل والمنطق ، فإذا انكشف له سرّ جمالها ، ولو بقيت بعيدة المنال ، ارتاح بعض الراحة وخفف عن نفسه بعض العذاب .

وتتخذ في هذا البيت لفظة « أشياء » الحسيّة الباردة ، العديمة الإيحاء قيمة خاصة في عفويتها وشمولها وعنفها ، وكأن المغنية أصبحت من عناصر الطبيعة والحياة ، فهي ليست أجمل المغنيات أو أجمل بنات جنسها ، ولا أجمل المخلوقات بل « أجمل الأشياء » .

ويعود الشاعر الى وصفها :

تتجلَّى للناظرينَ اليهـــا
فشقيٌّ بحسنِها وسعيدُ

فالمعنى المباشر الذي نفهمه من هذا البيت هو أن المغنية لدى ظهورها تجعل الناظرين اليها فئتين : أشقياء وسعداء . فالمقرّبون منها سعداء ، والمبعدون ، والشاعر واحد منهم ، أشقياء . غير

أن البيت يوحي بمعنى أبعد ويعبّر عن مأساة نفسية أعمق من هذا التمييز الظاهري بين سعداء وأشقياء . لعلّ الشاعر لم يضع نفسه في فئة الأشقياء فحسب ، بل هـو مرميّ في الشقاء والسعادة في آن واحد . هو سعيد بمشهد هذا الجمال ، وشقي ببعد مناله ، إذ ان لفتة من وحيد تشقيه ولفتة تسعده ، بل تميته وتحييه ، وإذا هو في دوّامة لا يجد للخروج منها سبيلاً .
ومما يثبت وجهة نظرنا هذه ما يرد في القصيدة من أبيات كهذه:

ما تزالينَ نظرةٌ منك موتٌ
لي مُميتٌ ونظرةٌ تخليدُ
نتلاقى فلحظةٌ منكِ وعدٌ
بوصالٍ ولحظـةٌ تهديدُ

فالشاعر تحت وطأة هذه التجربة العنيفة أبعـد من أن يصنّف نفسه هذا التصنيف الخارجي ، وإذا صحّ التصنيف بالنسبة لسائر المشاهدين ، فهو يعيش الواقـع بكل وجوهه وتناقضاته ، يعيش مأساة صراع .

ويستمر الوصف ويتكرر تشبيه المغنية بظبية بعد ورود هذا التشبيه في البيت الثاني من القصيدة . غير أن مـا يميّز التشبيه الأخير ، رغم حسيته وتقليديته كونه يحوي عنصراً وجدانياً : « ظبية تسكن القلوب وترعاها » .

فإذا كان تشبيه الفتاة الجميلة بظبية تشبيهاً عادياً ، فإن في قوله : تسكن القلوب وترعاها اشراقة وجدانية ، ومسحة من العذوبة والنضارة تغمر البيت بأكمله . وفي الشطر الثاني : « قمرية لها تغريد » تهيّؤ لوصف صوتها :

تتغنّى كأنها لا تغنّي
من سكونِ الأَوصالِ وهي تُجيدُ

فالمعنى القريب : أن وحيد تغنّي وكأنها لا تغنّي لاطمئنانها في الغناء وعدم تكلّفها وسكون أوصالها . غير ان لفظة « تتغنّى » تستوقفنا ، إذ تعبّر وحدها عن الاطمئنان في الغناء ، وكأنه يفوح منها فوحاً ، وكما لو كانت تغنّي وحدها . ففعل « تغنّي » يوحي بما لا يدل عليه فعل « غنّى » . التغنّي ذاتي لا يأخذ بالحسبان سامعين أو مشاهدين . وسواء قصد الشاعر هذه الاشارة الضمنية أم أتت عفواً ، أم ساقه اليها الوزن الشعري ، فاننا نكتفي بهذه الملاحظة . غير أن البيت يضطرب بموسيقاه وبتركيبه في حرف الجرّ « من » الذي يبدأ الشطر الثاني ، فينقطع النفس ويضعف التركيب ، ويميل المعنى الى الشرح والتفصيل الخارجيّين ، وقد عرف أسلوب ابن الرومي بالكثير من هذه العيوب الفنية . وكذلك في البيت الذي يليه اضطراب وتقلقل :

لا تراها هناك تجحظُ عينٌ

لك منها ولا يدرّ وريدُ

حيث تكثر أدوات هي أقرب الى الحشو : هناك – لك – منها ...

ويستمر الشاعر في التفصيل في بيت آخر :

من هدوٍّ وليس فيه انقطاعٌ

وسجوٍّ ومـــا به تبليدُ

وإذا بموسيقى البيت في تقطيع تفعيلاته توحي بما يصوّره الشاعر من صوت المغنية .

فمجرد الأنشاد يجسِّد هذا الهدوّ والسجوّ في غير انقطاع ولا تبليد . ثم ان الواو المشددة في هدوّ التي تبدأ الشطر الأول والواو المشددة في سجوّ التي تبـــدأ الشطر الثاني يساعدان في خلق الانسجام وتكامل النغمات بين الشطرين .

وفي وصف الصوت في البيت التالي يدخل عنصر وجداني ليس في البيتين السابقين :

مدّ في شأو صوتِهـــا نفسٌ كا

فٍ كأنفاسِ عاشقيها مديدُ

في هذا البيت مشاركة بين المشهد الخارجي والحالة النفسية بتمام طبعية . فلا تصنّع ولا اغراب .

يظهر لنا الشاعر من خلال هذه الأبيات الأربعة من عشّاق الجمال الذي يتمثل في التأليف والتناغم . يجد الشاعر في صوت وحيد وفي جمالها مـــا يفتقده في نفسه وفي حياته : التناغم والانسجام . ولكنّ التناغم الذي يراه في وحيد تناغم قاس بقدر ما هو لطيف ناعم ، يدخل الى قلبه الصقيع بقدر ما يبث في حناياه الدفء الذي يصبو اليه . من الطبيعي أن يكون للانسجام اللامبالي ، وللاكتمال الفنّي العفوي وكأنه لا يعي ذاته ، تأثير في النفس الشاعرة أبلغ من تأثير الجمال المصنوع أو الجمال الصاخب .

وإذ ينتهي الشاعر من وصف جمال القدّ والوجه والعنق ، ينتقل الى وصف الصوت ، وإذا الانسجام كذلك هو الصفة البارزة :

— من هدوّ وليس فيه انقطاع

— مدّ في شأو صوتها نفس كافٍ

كأن الشاعر لا يريد أن يفوته شيء من أسباب التمتع بجمال هذا الصوت فيصوّره في جميع وجوهـــه ودرجاته وجزئياته

ويحاول أن يعيشه صورة منطبعة في خياله وأنغاماً مستمرة في مسمعه ، بل انه يذهب الى أبعد من ذلك ، فيشعر القارىء أنه يحاول أن يمتّع عقله كذلك بهذا المشهد وهذا الصوت . فإذا كانت الحظوة بهذا الجمال مستحيلة ، وإذا كان استمرار هذا النغم مستحيلاً ، فلتكن الحظوة في الفن ، وليكن الاستمرار في التعبير الشعري الذي يتحدى الواقع القاسي ويتحدى الزوال .

وتشتد وطأة الرؤية على الشاعر بعد توالي الصور السمعية ، فتمتزج بصور بصرية :

فيه وشيٌ وفيه حَليٌ من النغمِ
مَصوغٌ يختالُ فيــــه القصيدُ

ان الشاعر يعطينا احساساً بوحدة قائمة بين جمال المغنية وجمال صوتها ، الشاعر يستعذب الصوت ويؤخـــذ بانبساطه وامتداده ، وخفوته وعلوّه ، ولا يكفّ عن تأمل مصدر هذا الصوت وما يتمتع به من جمال لا ينضب . فهذه الأوصاف التي ينسبها الى الصوت هي ذاتهـــا تنطبق على صاحبة الصوت : الوشي والحلي والاختيال ، أوصاف يراها الشاعر دفعة واحدة في وحيد وفي صوتها . فبعد أن وصف الصوت وحده ، عاد فالتفت الى الموضوع الأهم الذي يشغل باله : جمـــال وحيد . وهكذا يعود الى وصفها في الأبيات الأخيرة :

ليت شعري إذا أدام اليها
كرّةَ الطّرفِ مبدئٌ ومعيدُ

فها هو يعود الى البوح بعذابه وبما يعانيه أمام هذا الجمال المستحيل ، فيكتفي منه بالنظر وادامة النظر .

نشهد في هذا البيت ذروة الاستسلام والانسحاق حتى ان التركيب اللغوي يجسد هذه الدهشة وهذا الانخطاف . فالبيت يستهل بعبارة تعجبية : ليت شعري ، ثم يتلوهـا شرط لا جواب له إلا مـا يستفاد من معنى التعجب السابق . فهذا الشرط الذي يبقى بدون جواب حقيقي يوحي بذروة الدهشة والذهول .

وكذلك البيت التالي :

أهي شيءٌ لا تسأمُ العينُ منه ؟
أم لها ، كلَّ ساعةٍ تجديدُ ؟

وهو قائم على استفهام تعجّبي . ان الشاعر يعجب من هذا « الشيء » الذي لا تسأم العين منه في ظاهر الاستفهام . كما أن في استعمال لفظة « شيء » دلالة عنيفة على أن هـذه الحبيبة البعيـدة القريبة ، التي تشقي وتسعد ، تحيي وتميت ، قد أصبحت ، مرة أخرى ، من عناصر الحياة ، وليست كائناً

انسانياً وحسب . فبقدر ما اللفظة عادية حسية ، مبتذلة ، تكتسب هنا قيمة خاصة ، وتنقل الموضوع من عـالم انساني محدود الى عالم الطبيعة والحياة . في ذروة دهشتنا أمام أي كائن ، أو مشهد أو حالة لا نجد أصدق من كلمة « شيء » وأكثر عفوية وعنفاً . وحرف العطف « أم » الذي يربط بين الشطرين يزيد من قـوة المعنى ومن استمراره ، فإذ ينتظر السامع أو القارىء استدراكاً واستئنافاً لمعنى جديد، إذا به أمام استمرار للاستفهام التعجّبي ذاته .

وفي البيت الأخير الذي يبدأ بحرف الاستدراك « بـل » تخط لجميع الأوصاف السابقة ، إذ يشبّه وحيد بالحياة . هي كالحياة في عنف اشتهائها وتعلّق النفس بها وما تضج به من لذائذ لا تكف عن اجتذاب الانسان اليها ، وما تزخر به من شقاء ومصائب ويأس ، وطلب الاستزادة منها رغم قساواتها . في هذا البيت يعبّر ابن الرومي عـن نفسه بجميع غرائزها ونزعاتها وشهواتها وأمانيها وبؤسها وحنينها الدائم الى اشباع جوع لم تستطع اشباعه .

ما أبعدنا في هذا الجوّ الغزلي عن الغزل الجاهلي والأموي الذي يقف عند حدود الجمال الجسدي ، وإن ارتقى بعضه الى صفاء الوجدان في لحظات نادرة فهو لا يستطيع أن يرتقي بموضوع الحب الى مستوى التجربة الانسانية الكاملة .

القيان

[من قصيدة هنأ فيها ابن الرومي عُبَيد الله بن عبدالله بن طاهر بالمهرجان . وهي قصيدة طويلة كثيرة المشاهد الوصفية ، نجتزىء منها بوصف القيان لما فيه من طرافة ودقة] .

وَقِيانٍ كَأَنَّهـــا أُمَّهاتٌ
عَاطِفَاتٌ على بَنِيها ، حَوَانِ [1]

مُطْفِلَاتٍ وَمَـــا حَمَلْنَ جَنِيناً ،
مُرْضِعاتٍ ، وَلَسْنَ ذَاتَ لِبانِ [2]

كُلُّ طِفْلٍ يُدْعَى بِأَسْماءَ شَتَّى
بَيْنَ عُـــودٍ وَمِزْهَرٍ وَكِرانِ [3]

---

١ — القيان ج قَيْنة وهي المغنية ؛ وانما قيل للمغنية قينة إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك من عمل الإماء دون الحرائر . كان القيان اللواتي رآهن الشاعر يحملن آلات الطرب ويعطفن عليها كما تعطف الأمهات على بنيهن .

٢ — المطفل : ذات الطفل . اللبان : الرضاع .

٣ — المزهر : العود يضرب به . الكران : الصنج .

أُمُّهُ ، دَهْرَهَا ، تُتَرْجِمُ عَنْهُ ،
وَهْوَ بَادِي ٱلْغِنَى عَنِ التَّرْجُمانِ

غَيْرَ أَنْ لَيْسَ يَنْطِقُ ٱلدَّهْرَ إِلَّا
بِالْتِزَامٍ مِنْ أُمِّهِ وَٱحْتِضَانِ

أُوتِيَ ٱلْحُكْمَ وَٱلْبيانَ صَبِيًّا ،
مِثْلَ عِيسَى بْنِ مَرْيَمٍ ذِي ٱلْحَنانِ ،

فَتَرَاهُ يَفْرِي ٱلْفَرِيَّ ، بِلَفْظٍ
قَائِمِ ٱلوَزْنِ عَادِلِ ٱلْمِيزانِ[1]

لَوْ تَسَلَّى بِهِ حَدِيثَةُ رُزْءٍ ،
لَشَفَى دَاءَ صَدْرِهَا ٱلْحَرَّانِ[2]

عَجَباً مِنْهُ ، كَيْفَ يُسْلِي وَيُلْهِي ،
مَعَ تَهْيِيجِهِ عَلَى ٱلْأَشْجَانِ

---

١ — يفري الفري : أي يأتي بالعجيب في عمله .

٢ — لو تسلى : أي لو تتسلى . حديثة الرزء : التي حلّت بها المصيبة من زمن غير بعيد .

فَتَرَى ، فِي ٱلَّذِي يُصِيخُ إِلَيْهِ ،
أَمَرَاتِ ٱلمَحْزُونِ وَٱلْجَـذْلَانِ[1]

وَتَغَنَّتْهُ بِالْمَـدَائِحِ فِيـهِ
كُلُّ غَيْدَاءَ غَـادَةٍ مِفْتَانِ

ذَاتِ صَوْتٍ تَهُزُّهُ كَيْفَ شَاءَتْ
مِثْلَ مَا هَزَّتِ الصَّبَا غُصْنَ بَانِ

يَتَثَنَّى ، فَيَنْفُضُ الطَّلَّ عَنْهُ
فِي تَثَنِّيهِ ، مِثْـلَ حَبِّ ٱلْجُمَانِ

جَهْوَرِيٍّ ، بِلَا جَفَاءٍ عَلَى السَّمْعِ
مَشُوبٍ بِغُنَّـةِ ٱلْغُزْلَانِ[2]

---

١ – الامرات ، كالأمارات : العلامات .

٢ – الجهوري : الصوت العالي . الغنـّة : هي ان يشرب الحرف صوت الخيشوم .

فِيهِ بَمٌّ ، وَفِيهِ زِيرٌ مِنَ النَّغْمِ ،
وَفِيــهِ مَثَالِثٌ وَمَثــانِ[1]

فَتَرَاهُ يَجِلُّ فِي ٱلسَّمْعِ حِيناً ،
وَتَرَاهُ يَــدِقُّ فِي ٱلْأَحْيانِ

يَلِـجُ ٱلسَّمْعَ ، مُسْتَمِرًّا إلى ٱلْقَلْبِ
بِلَا إِذْنٍ ، لَا ، ولَا ٱسْتِئْذَانِ

---

١ – البمّ : الوتر الغليظ من أوتار المزاهر . الزّير : الدقيق من الاوتار . المثالث ج مِثلث وهو ما كان على ثلاث قوى من الأوتار ، وقيل الثالث منها . والمثاني من الأوتار ج مثنى وهو الذي بعد الأول .

حديقة الشعر

من قصيدة طويلة قالها في مدح اسماعيل ابن بلبل وزير المعتمد، وصدّرها بوصف المرأة، وقد عرفت بدار البطيخ لكثرة ما ورد فيها من ذكر للثمار والمآكل .

أَجْنَتْ لكَ الوجدَ أغصانٌ وكُثبانُ،
فيهنّ نوعانِ : تُفّاحٌ ورمّانُ [1]

وفوقَ ذَيْنِكَ أعنابٌ مُهدَّلَةٌ ،
سُودٌ، لهنّ، منَ الظّلماء، ألوانُ [2]

وتحتَ هاتيكَ عُنّابٌ، تَلوحُ بِهِ
أطرافُهُنّ، قلوبُ القوم قِنوانُ [3]

---

١ – أجنت : أعطت جناها . الوجد : الحزن . أغصان : على سبيل الاستعارة، والمراد القدود . كثبان : أي أرداف ثقيلة . تفاح : أي خدود. رمان : أي نهود .

٢ – ذينك : مثنى ذا ، والكاف حرف خطاب . والمراد : وفوق هذين النوعين ، أي التفاح والرمان . الأعناب : يريد بها الشعر المقصوص المعقرب على الزي الغلامي، فهو يشبه عناقيد العنب في تهدله . مهدلة : مدلاة.

٣ – هاتيك : أي هاتيك الأعناب . العناب ، أي أطراف الأصابع المخضبة بالحناء . تلوح : تبدو . أطرافهن : أي أطراف الأصابع . القنوان : واحدها قنو ، وهو العذق من النخل كالعنقود من العنب .

غصونُ بانٍ، عليها، الدّهرَ،فاكِهةٌ،
وما الفَواكِهُ مِمّا يَحمِلُ البانُ

ونرجسٌ باتَ ساري الطّلّ يَضرِبُهُ،
وأُقحُوانٌ مُنيرُ النَّوْر ، رَيّانُ [1]

أُلّفْنَ مِنْ كلّ شيءٍ طَيّبٍ حَسَنٍ،
فهُنّ فاكِهَةٌ شَتّى ، ورَيْحانُ [2]

ثمارُ صدْقٍ ، إذا عايَنْتَ ظاهِرَها
لكنّها، حينَ تَبلو الطَّعمَ، خُطبانُ [3]

---

١ - نرجس : أي عيون . الساري : ما جاء ليلاً . الطل : الندى أو المطر الخفيف . يشبه عيون الحسان بالنرجس الريان الذي سقاه الطل فتفتح وغض . الاقحوان : نبت أصفر الزهر ، في وسطه وحواليه ورق أبيض ، يشبه به الأسنان . منير : مخرج نوره . النور : الزهر الأبيض. ريان : مرتو. يشبه الأسنان في بياضها ومائها بالاقحوان الريان .

٢ - ألفن : الضمير يعود إلى الأغصان .

٣ - تبلو : تختبر . خطبان : ضرب من الحنظل . يقول : إذا نظرت إلى الحسناء خلتها حلوة الطعم كالثمار الصادقة في حسن ظاهرها وباطنها ، ولكن حين تختبر هذه الحسناء أو هذه الثمار التي تظنها صادقة ، تجدها مرة كالحنظل.

بل حُلوَةٌ مُرّةٌ ، طَوراً يُقالُ لها :
شهدٌ، وطوراً يَقولُ النّاسُ: ذَيْفانُ [1]

تَغدو الفَتاةُ، لها خِلٌّ، وإنْ غدَرَتْ،
راحَتْ يُنافِسُ فيها الخِلَّ خِلّانُ

ما للحِسانِ مُسيئاتٍ بنا ، ولَنا ،
إلى المُسيئاتِ، طولَ الدّهرِ، تَحنانُ

يُصْبِحْنَ والغَدْرَ بالخُلصانِ في قَرَنٍ،
حتى كأنْ ليسَ غيرَ الغَدْرِ خُلصانُ [2]

فإنْ تُبِعْنَ بِعَهْدٍ ، قُلنَ : مَعذِرَةً ،
إنَّا نَسينا ، وفي النّسوانِ نِسيانُ [3]

---

١ – شهد : عسل . الذيفان : السم القاتل .

٢ – الخلصان : الخالص من الأصحـــاب . القرن : الحبل الذي يجمع فيه البعيران . يقول : يصبحن مجموعات مع الغدر بالأصحاب في حبل واحد حتى كأن ليس لهن صاحب خالص الصحبة غير الغدر لطول اجتماعهن معه.

٣ – تبعن بعهد : أي طولبن به .

يَكفي مُطالِبَنا بالذِّكر ناهِيَةً
أنّ اسمَنا الغالِبَ المشهورَ نِسوانُ [1]

لا نُلزَمُ الذِّكرَ ، إنَّا لم نُسَمَّ به ،
ولا مُنِحْناهُ ، بل للذِّكرِ ذُكرانُ [2]

---

١ – بالذكر : أي بذكر العهد . ناهية : أي ناهية تنهاه عن هذه المطالبة .

٢ – الذكران : جمع ضد الانثى . والمراد ان النسوان لا تطالب بالذكر لأن اسمهن مشتق من النسيان ، وإنما تطالب الذكور به لأن اسمهم مشتق منه .

قوس السحاب

وساقٍ صَبيحٍ للصَّبوح دَعَوْتُهُ ،
فقامَ ، وفي أَجفانِه سِنَةُ الغُمْضِ [1]

يَطوفُ بكاسات العُقار كأَنْجُمٍ ،
فِمنْ بَينِ مُنقَضٍّ علَينا ، ومُنْفَضِّ [2]

وقد نَشَرَتْ أيدي الجَنوب مَطارفاً
على الجَوِّ دُكْناً ، والحواشي على الأرضِ [3]

يُطَرِّزُها قَوْسُ السَّحاب بأَخْضَرٍ ،
على أَحْمَرٍ ، في أصفَرٍ ، إثرَ مُبيَضِّ

---

١ – الصبيح : الجميل . الصبوح : شرب الخمر صباحاً . السنة : النعاس . الغمض : أي النوم .

٢ – العقار : الخمر . منفض : منصب ، أي مشروب .

٣ – الجنوب : أي ريح الجنوب . المطارف ، واحدها مطرف : رداء من خز وهو مستعار للغيوم . الدكن : ما كان لونها يضرب الى السواد .

كأذيال خَوْدٍ ، أقبَلَتْ في غَلائِلٍ
مُصَبَّغَةٍ ، والبَعضُ أَقصرُ من بَعض[1]

وصف الربيع :

أَصبَحَتِ الدّنيا ترُوقُ مَنْ نَظَرْ
بمَنْظرٍ فيــهِ جَلاءٌ للْبَصَرْ
ثَنَتْ على الله بآلاءِ المَطَرْ
فالأَرْضُ في رَوْضٍ كأَفوافِ الحُبَرْ
نَيِّرَةُ النّوّارِ ، زَهْراءُ الزّهَرْ
تبرّجتْ بعدَ حَيــاءٍ وخَفَرْ
تَبرّجَ الأُنثى تَصَدّتْ للذّكَرْ

١ – الخود : الشابة الناعمة . غلائل : جمع غلالة ، وهي شعار يلبس تحت الثوب . وقوله البعض أقصر من بعض : يريد بذلك اظهار ألوانهـا المختلفة فيتألف منها قوس السحاب .

وصف خوفه من ركوب الماء

هذه أبيات من قصيدة طويلة في مدح أحمد بن ثوابة الكاتب الذي كان قد طلب من ابن الرومي ان يزوره ليجزل له العطية ، فامتنع الشاعر لجبنه وتشاؤمه إذ كان عليه أن يقطع دجلة . فهو يعتذر في هذه القصيدة ويصف خوفه من ركوب الماء ، قال :

وأمـــا بلاءُ البحرِ عندي فإنّه
طواني على رَوعٍ ، مع الروحِ واقبِ [1]

ولو ثابَ عقلي لم أَدَعْ ذكرَ بعضِه
ولكنّه ، منْ هولِهِ ، غيرُ ثائبِ [2]

---

١ – بلاء البحر : تجربتي له . طواني على روع : جعلني أنطوي على فزع . واقب مع الروح : يمازج الروح ويساكنها .

٢ – لو ثاب عقلي : لو عاد عقلي الي بعد ان شرد عني لشدة هولي. لم أدع ذكر بعضه : الضمير عائد على الروع . يقـــول : ان عقلي شرد عني من فزع البحر ولذلك لن استطيع ان اصف إلا بعض ما لقيته من هول .

وَلِمْ لا ، ولو أُلْقيتُ فيـــه وصخرةً
لوافيتُ منــــهُ القعرَ أَوّلَ راسبِ [1]

ولمْ أَتعلّمْ قط مِنْ ذي سباحةٍ
سوى الغَوصِ ، والمضعوفُ غيرُ مغالِبِ [2]

فأَيسرُ إشفاقي من المــــاءِ أَنني
أَمرُّ بـه في الكُوزِ مرَّ المُجـــانبِ [3]

وأَخشى الرّدى منـــهُ على كلِّ شاربٍ
فكيفَ بأمنيه على نفسِ راكبِ؟ [4]

---

١ ـ لم لا : اي لم لا اخشى البحر . وافيت : بلغت .

٢ ـ الغوص : النزول تحت الماء ، وهو في قصد الشاعر نزول يتبعه غرق لا صعود . المضعوف : الضعيف . غير مغالب ، لا يغالب القوي .

٣ ـ ايسر : اقل الاشفـــاق . الخوف والمحاذرة . الكوز : الكأس . المجانب : المتجنب .

٤ ـ كيف بأمنيه : كيف آمنه .

أظلُّ إذا هزَّتْه ريحٌ ، ولألأتْ
له الشّمسُ أمواجاً طِوالَ الغواربِ [1]

كأني أرى فيهنَّ فُرسانَ بُهْمَةٍ
يُليحُونَ نحوي بالسّيوفِ القَواضبِ [2]



لِدِجْلَةَ خَبٌّ ليس للّيمّ ، إنّها
تُرائي بحلمٍ تحتَه جَهلُ واثبِ [3]

تَطامَنُ حتى تطمَئِنَّ قُلوبُنا
وتَغْضَبُ من مَزْحِ الرّياح اللّواعبِ [4]

---

١ - لألأت الشمس امواجاً : جعلتها تتلألأ . الغوارب : جمع غارب وهو في الاصل اعلى الظهر ثم اصبح يدل على الجانب الاعلى من كل شيء فغوارب البحر هي اعالي امواجه .

٢ - البهمة : الجيش الكثيف الشديد . يليحون : يحركون ويلوحون . قواضب : قواطع .

٣ - الخب: الخداع . ترائي: تتظاهر . حلم: اناة . جهل: طيش ونزق . واثب : ثائر .

٤ - تطامن : تظهر الطمأنينة . مزح الرياح : اي هبوبها الخفيف .

وأجرافُهـا رهنٌ بكلِّ خيـانةٍ
وَغدْرٍ ، فَفيها كلُّ عيبٍ لعائبِ [1]

تَرانا إذا هاجتْ بهـا الرِّيحُ هَيْجةً
تُزلزَلُ في حوماتِهـا بالقَواربِ [2]

نَوائلَ من زلزالِها نحـوَ خسفِها
فلا خـير في أوساطِها والجوانبِ [3]

زلازلُ موجٍ في غمـار زواخِرٍ
وهدّاتُ خَسفٍ في شُطوطٍ خوارب ! [4]

---

١ ـ الاجراف : جوانب النهر التي اكلها الماء. رهن بكل خيانة وغدر: اي انها تنهار على حين غفلة فتغرق السفن والناس . فيها كل عيب لعائب : اي انها محط السخط والعيب ممن يعرفون ذلك منها فيعيبونه عليها .

٢ ـ تزلزل : تتحرك بشدة . حوماتها : اواسطها حيث يشتد هول الماء ويحدث فيه دوران.

٣ ـ نوائل : نلجأ . زلزالها : وسطها الذي يتزلزل . خسفها : جوانبها التي تنخسف وتنهار . ومعنى البيت انهم اذا هربوا من خطر وقعوا في آخر فحالهم حال من يستجير من الرمضاء بالنار .

٤ ـ زلازل : هنا حركات . غمار : جمع غمرة وهي الماء الكثير العميق. زواخر : كثيرة مندفعة ترتفع وتنخفض . هدات : هدامـات . خوارب : صائرة الى الخراب والتهدم .

درسٌ وتعليق :

في هذه الأبيات قسمان واضحان : الأول في وصف خوفه من السفر في الماء عامة وهو يكنّي عنه بالبحر ، والثاني في وصف أخطار دجلة وأهوالها .

نتبين في القسم الأول خفة روح الشاعر وخوفه المريض .

اما خفة روحه فظاهرة في تهكّمه على نفسه حيث يقول ؛ انه يسابق الصخرة الى قعر البحر ، وانه لم يتعلّم من السباحة إلا الغوص والغرق ، وانه إذا مرّ بكوز ماء انحرف عنه ، وانه يخشى على الذين يشربونه من الموت غرقاً به .

واما خوفه المريض فيستنتج استنتاجاً منطقياً من هـذه المقدمات : ان كانت هذه هي حـاله من الطيرة والضعف والتشاؤم ، فكيف لا يخاف على نفسه من ركوب البحر ؟ ثم يضيف الى هذا كله برهاناً سفسطائياً لا يقنع إلا من كان مثله ذا شعور مريض وجبن شديد ، ألا وهو تخيّله فرساناً أشاوس يليحون بسيوفهم إذا ما تلألأت أمواج البحر تحت أشعة الشمس .

وابن الرومي في كل ذلـك صادق ومبالغ : صادق في عاطفته ، مبالغ في تصويرها . مرض الارادة قد ينتهي بصاحبه أما الى الجبن وأما الى الهوس ، وكلا الأمرين يوحيان بالمبالغة . كان ابن الرومي جباناً يرى في كوز المـاء خطراً مداهماً وفي تلألوء الأمواج سيوف فرسان ، كما كان «دون كيخوتياً» متهوساً يختلق الجبابرة لكي ينازلهم !..

أما من ناحية الاسلوب فلم يأت ابن الرومي من ألوان البديع إلا تشبيهاً واحداً هو تشبيه خطر الموج بخطر الفرسان الأعداء ، وذلك لأنه شاعر معان قبل أن يكون شاعر مبان . ولكن خياله الوثاب جاء بما هو خير من التشابه والاستعارات أي تلك الصور الواقعية التي استمدها من حياته واختباراته وانفعالاته .

وهذا القسم مضطرب كشعوره فيتنقل فيه الأسلوب من الشرط الى الاستفهام الى الاخبار المنفي والإيجابي في تنويع لا يعرف الاستقرار .

وأما القسم الثاني فيجري فيه الشاعر على عادته في تشخيص الموصوفات فيخلع على دجلة العواطف الانسانية ، وإذا بها ماكرة خبيثة تتظاهر بالهدوء فتطمئن لها القلوب . ولكنها لا تلبث ان تغضب وتثور إذا مازحتها الرياح ، بهبوب خفيف ، فتتزلزل القوارب في أوساطها وتنهـــار الشطوط في احفـّتها ويحيق الخطر من كل جانب فتستحيل النجاة ... صورة رهيبة حقاً تترك في النفس أثراً مفزعاً يركزه البيت الأخير تركيزاً ثابتاً لما فيه من توازن بين شطريه :

زلازلُ موجٍ ، في غمـــار زواخرٍ
وهدّاتُ خسفٍ ، في شُطوطٍ خواربِ

ولكم كانت الصورة أرهب وأعمل في النفس لو ذكر الشاعر أصوات المستغيثين وهدير الأمواج وولولة الرياح !..

ولقد اتصف هـذا القسم كلّـه بصفة الاخبار الايجابي. فالأسلوب هنا غيره في القسم الأول: هناك الاضطراب وهنا الاستقرار، هناك الحجج الواهية وهنا الحجة السديدة، هناك عاطفة مريضة وهنا عقل متبصر (بقدر ما يترك الخوف للعقل تبصراً).

والآن إذا أردنا أن نحكم على هذه الأبيات من حيث الحسن والقبح لأعجبنا بصدق عاطفة الشاعر وحسن تصويره وقوة تصوّره، ورثينا لضعف ارادته ومرض احساسه وجنـوح خياله، ودهشنا لثروته اللفظية وتفنّنه في المعاني البسيطة، وحمدنا له عدم تكلّفه البديع واقتصاره على ما يتوارد عليه عفواً وطبعاً. ثم أخذنا عليه ميله الى الاطناب، وتقلّبه المعنى الواحد في صور لفظية متعددة، وسهولة في اللغة تجعل قوله أحياناً أقرب الى النثر منه الى الشعر.

وصف المآكل

[يصف ابن الرومي المآكل والمشارب وأطايب الحياة ، عن نهم فيه عجيب ، وهو في وصفه للعنب الرازقي ، والقطائف ، والموز ... دقيق الملاحظة والتصوير الفني الرائع .

وصف العنب الرازقي بأن حبّه ضامر الوسط ، وقشرته شفافة مشرقة ، كأنها مخزن للبلور ، النصف الأدنى من حبّه أسود اللون ، والنصف الأعلى أحمر ، له لون ماء الورد ، وقد انضجته شدة الحر ، وصفّـته حتى لم يبق منه إلا ضياء في «ظروف نور» . فلو انه كان يبقى على الأيام للبسته الحسان حلقاً في آذانها] :

العنب الرازقي

ورازقيٍّ مُخطَفِ الخُصُـورِ [1]

كأنّهُ مخازنُ البلورِ

قد ضُمّنت مِسكاً الى الشّطورِ

---

١ — العنب الرازقي : نوع من العنب الأبيض ، طويل الحب . مخطف الخصور : هزيلها .

وفي الأعالي ماءُ وردٍ جُوري[1]

لم يُبق منهُ وَهَجُ الحرورِ

إلّا ضياءً في ظروفِ نورِ

لو أنّه يَبقى على الدّهورِ

قرّطَ آذانَ الحِسانِ الحُورِ

لهُ مَذاقُ العسلِ المشورِ

ونكهةُ المسكِ مع الكافورِ

باكرتُهُ والطيرُ في الوكورِ

وعذرُ اللّذاتِ في البكورِ

بفتيةٍ من ولدِ المنصـــورِ

أملاً للعينِ من البـــدورِ

حتى أتينا خيمةَ الناطورِ

---

١ — الجوري : نسبة الى جـــور . مدينة بفارس ينسب اليها الورد ويعمل فيها ماؤه .

قبلَ ارتفاعِ الشَّمسِ للذّرورِ [1]

ثمّ جلسنا مَجلسَ المحبُورِ

على حِفافَيْ جدولٍ مسجُورِ [2]

أبيضَ مِثلَ المُهرقِ المنشورِ [3]

أو مثلَ مَتنِ المُنصُلِ المشهُورِ [4]

يَنسابُ مثلَ الحيّةِ المذعورِ

بينَ سِماطَيْ شجرٍ مَسْطورِ [5]

فنيلَتِ الأَوطارُ من سرورِ

تعلّةً عن يومنـــا المنظورِ [6]

ومتعـــةً من متعِ الغُرورِ

---

١ – الذرور : طلوع الشمس .

٢ – حفافي الجدول : جانبيه . والمسجور : المملوء .

٣ – المهرق : الصحيفة .

٤ – المنصل : السيف .

٥ – السماطان : مثنى سماط . وهو الشيء المصطف .

٦ – تعلّة : أي بعمل ما . يقال علّل نفسه بتعلة ، أي شغل نفسه بشيء .

قطائف

قَطائفٌ قد حُشيتْ باللوزِ

والسُّكرِ الماذيّ حشوَ الموزِ [1]

تَسبحُ في آذيّ دُهنِ الجوزِ

سُررْتُ لمَّا وقعَتْ في حوزي

سرورَ عبّاسٍ بقربِ «فوز» [2]

الزلابية

ومُستقرٍ على كرْسيّهِ تَعِبِ

روحي الفداءُ لهُ من مُنصَبٍ تعبِ [3]

---

١ – الماذي : الأبيض .

٢ – عباس : يقصد الشاعر العباس بن الأحنف . فوز : حبيبته .

٣ – المنصب : المتعب .

رأيتُه سحَراً يَقلي زلابيةً

في رقّةِ القشرِ والتجويفِ كالقصبِ

كأنّما زيتُهُ المقليُّ حين بدا

كالكيمياءِ التي قالُوا، ولم تُصبِ

يُلقي العجينَ لجيناً من أناملِهِ[1]

فيستحيلُ شبابيكاً من الذّهبِ

---

١ – اللجين : الفضة .

نظرة في وصف ابن الرومي :

١ – التصوير : ابن الرومي رسّام بارع ، ينتخب من الأشكال ، خطوطها البارزة الرئيسية ، شأنه في ذلك ، شأن بعض الرسامين المحدثين ، وانه يجيد التعبير عن الألوان ، ويمثل الحركة ، وهي أصعب ما في فن التصوير ، بكلام مقتضب رائع لم يسبقه اليه سابق .

وهو ان وصف ، فلدافع نفساني ملحّ ، يكون إما للإعجاب وإما للتأذي . ولذلك فقد امتاز تصويره ، بصدق الشعور ، وقوة العاطفة .

٢ – التشخيص : وهو أبرز ما في وصف ابن الرومي . تنكّر له المجتمع ونبذه ، ولما كان مرهف الحس ، لم يجد بين أصدقائه من يطمئن اليه ، ويبوح لديه بما ضاق به صدره فلجأ الى الطبيعة الحية والصامتة ، وخلع عليها أحاسيس فؤاده ، وإذا بالطبيعة شخص حي ، وإذا بالأرض في الربيع ، تتبرّج تبرّج الأنثى ، والأغصان تتناجى نشوى من طرب ، والشمس عند المغيب ، محتضر يعاني آلام الفراق ، وإذا للريح الجنوبية أيد ، تنشر الغيوم ، ولقوس قزح ، أنامل تطرّز السحاب ، وإذا نهر دجلة ماكر خبيث خدّاع ، يغضب ويثور إذا مازحته الرياح .

وهذا الارتقاء بالموصوفات ، الى مقام الانسان ، هو أبلغ ما يقال في الوصف .

٣ – **التبسط** : وهو تلك النزعة التي حملت الشاعر ، على ان يتناول المعنى البسيط ، فلا يزال يقلّبه على وجوهه ويستقريه ، حتى يستوفيه ويظهره على حقيقته ، ويشعر بأنه لم يترك مأخذاً لآخذ أو مستزاداً لمستزيد .

مثال ذلك وصفه الأحدب [1] ، حيث يبدو ان البيت الثاني، لا يزيد شيئاً على صورة الموصوف ، التي ظهرت جليّاً في البيت الأول . ولكن لو لا هذا البيت ، لكان في قوله ثلمة لم تسد ، وهي ان الانسان لا يتربّص للصفع ، ان لم يكن قد صفع من ذي قبل .

ومثال آخر على ذلك وصفه قوس السحاب [2] . ان في البيتين : الأول والثاني من الدقة والاحاطة بالموصوف ما يكفي لإبراز الألوان المنبثقة من السحاب . ولكن ابن الرومي لم يكتف بذلك ، بل أراد ان يقرّب الينا ما رأى ، بصورة جديدة لا تلمّ بكل المشهد ولكنها تساعد على ادراكه ادراكاً أتمّ .

---

١ – راجع المنتخبات .

٢ – راجع المنتخبات .

وخلاصة القول : لقد استطاع ابن الرومي ان يكثر من استخدام أداة « التجسيم » في شعره كما كان يكثر من استخدام أداة « التشخيص » ، وأكبر الظن أنه اندفع الى ذلك تحت تأثير حساسيته الخاصة ، فمثله ممن يتطير ويتشاءم ويكبر التوافه لا بد ان يلتزم ذلك في تصويره ومعانيه ، فهو كثير الخيال والأحلام ، يتصوّر الخيال والحلم حقيقة فينفعل ويعظم انفعاله . ويكبر تصوّره ويتضخم ، فإذا المعاني والأشياء تتجسم أمامه وتتشخص ، وإذا لها كل ما للأحياء من خواصّ وصفات ، فهي تعقل عقلها ، وهي تحسّ احساسها ، وهي تشعر شعورها ، ولعل هذا هو ما جعله يستعير من أبي تمام هاتين الأداتين من التجسيم والتشخيص وان كان أبو تمام يستعلي عليه بما يستعين به من الغموض والدقة والتعقيد في التصوير[1] .

---

١ - الدكتور شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص: ١٤٠.

الرثاء

[هو الغناء الحزين على فقد حبيب ، أو نسيب ، أو سيد كريم . وهو نوعان : رثاء خاص ، يصف به الشاعر حزنه ولوعته على عزيز فجع بفقده . ورثاء عام يشيد فيه الشاعر بمآثر عظيم أدركته المنية ، فيصف فادح المصيبة فيه . وقد توسّع النقاد في معنى الرثاء فألحقوا به الشعر الذي يتفجّع به لكارثة شعب أو دولة أو مدينة كرثاء ابن الرومي للبصرة .

« وثمة أسلوب آخر في الرثاء يمكننا أن ندعوه بالرثاء الوجداني الصرف الذي يعبر عن مأساة النفس تحت وطأة الفجيعة ، فهو قلما يستعير المعاني العامة ؛ وإنما يبوح بغنائية النفس وما يخالجها من أسى وقنوط وخيبة . الشاعر في الرثاء الوجداني يلتفت الى ضميره ومأساته أكثر مما يلتفت الى ذاكرته وذهنه . إنه يعترف فكأن شعره بخور يتسامى من مجمرة النفس بينما يغلب أن يكون الرثاء الكلاسيكي تزويقاً وفسيفساء من الأفكار . ولقد ألم ابن الرومي بهذين النوعين من الرثاء ، وان كان رثاؤه أقرب الى الوجدانية الذاهلة منه الى الكلاسيكية المنقولة الجافة »][1] .

---

١ - ايليا حاوي . ابن الرومي : فنه ونفسيته من خلال شعره .

رثاء ولده الأوسط

بُكاؤكُما يَشفي ، وإن كان لا يُجدي
فجودا ، فقَد أودى نَظيرُكُما عندي [1]

ألا قاتَلَ اللهُ المَنايا ورَمْيَها ،
من القوْم ، حَبّاتِ القُلوبِ ، على عَمْدِ

تَوَخّى حِمامُ الموت أوْسَطَ صِبْيَتي ،
فلِلّه ! كَيفَ اختارَ واسِطَةَ العِقْد [2]

على حينَ شِمْتُ الخَيرَ مِنْ لَمَحاتِه ،
وآنَسْتُ مِنْ أَفْعالِهِ آيَةَ الرُّشْد [3]

طواهُ الرّدى عَنّي ، فأضْحَى مَزارُهُ
بَعيداً على قُرْبٍ ، قَريباً على بُعْد

---

١ – بكاؤكما : خطاب لعينيه . أودى مات .

٢ – واسطة العقد : الجوهرة التي في وسطه .

٣ – شمت : نظرت . آنست : نظرت وعلمت . الآية : العلامة .

لقَد أنْجزَتْ فيه المنايا وَعِيدَها ،

وأخلفَتِ الآمالُ ما كان مِنْ وَعْد

لقَدْ قَلّ بينَ المَهد واللَّحد لَبْثُهُ ،

فلم يَنسَ عَهدَ المَهْد ، إذ ضُمّ في اللَّحد

ألحّ علَيْهِ النّزْفُ ، حتى أَحالَهُ

إلى صُفرَةِ الجاديّ عن حُمرَةَ الوَرْد [1]

وظَلّ على الأَيْدي تَساقَطُ نَفسُهُ ،

ويَذْوي كما يَذوي القضيبُ من الرَّند [2]

فيا لَكِ من نَفسٍ ، تَساقَطُ أَنفُساً !

تَساقُطَ دُرٍّ مِن نِظامٍ بلا عَقْد [3]

---

١ — ألحّ عليه النزف : اشتد وقوي . الجادي : الزعفران .

٢ — يذوي : يذبل . الرند : شجر طيب الرائحة .

٣ — يقول : إن ولده تلاشى شيئاً فشيئاً ، فكأن نفسه تتساقط أنفساً مجزأة كما يتساقط الدر من سلك غير معقود .

عَجِبتُ لقَلبي كيفَ لم يَنفَطِرْ لَهُ ،
ولو أَنّهُ أَقسَى مِنَ الحَجَرِ الصَّلْدِ [1]

وما سرّني أَنْ بِعْتُهُ بِثَوَابِهِ ،
ولو أَنَّهُ التَّخليدُ في جَنَّةِ الخُلْدِ [2]

ولا بِعْتُهُ طَوْعاً ، ولكن غُصِبتُهُ ،
وليسَ على ظُلمِ الحَوادثِ من مُعْدِ [3]

وإنّي ، وإنْ مُتّعْتُ بابنيّ بَعدَهُ ،
لَذاكرُهُ ما حنّتِ النِّيبُ في نَجْدِ [4]

وأَولادُنا مثلُ الجَوارِحِ ، أيّها
فقَدناهُ ، كانَ الفاجِعَ البَيّنَ الفَقدِ [5]

---

١ — ينفطر : ينشق . الصلد : اليابس أو الصلب .

٢ — بعته بثوابه : أي بدلاً مما يلقاه من أجر أو جزاء في الآخرة . والثواب : الجزاء .

٣ — معد : معين . من أعدى فلاناً على الأمر أعانه : ساعده .

٤ — النيب ، واحدتها الناب : الناقة المسنة .

٥ — الجوارح : أعضاء الانسان التي تكتسب كالعين والأذن والأنف .

لكلٍّ مكانٌ لا يَسُدّ اختِلالَهُ
مكانُ أخيهِ مِن جَزُوعٍ ولا جَلْدِ[1]

هَلِ العينُ، بعد السَّمعِ، تكفي مكانَهُ،
أَمِ السَّمعُ، بعدَ العينِ، يَهدي كما تَهدي؟[2]

لَعَمْري! لقد حالتْ بيَ الحالُ بَعدَهُ،
فيا لَيتَ شِعري، كيفَ حالَتْ به بَعدي؟[3]

ثَكِلْتُ سُروري كلَّهُ، إذ ثَكِلْتُهُ،
وأَصبحتُ في لَذَّاتِ عَيشي أخا زُهْدِ

أَرَيْحانَةَ العَيْنَينِ والأَنفِ والحَشا،
أَلا لَيتَ شِعري، هل تغيّرتَ عن عهدي؟

---

١ – الجزوع: الذي لا يصبر. يقول: لكل من الجوارح مكان في جسم الانسان، فإذا اختل عضو منها، لا يسد خلله العضو الآخر سواء كان في جسم شخص جزوع أو شخص صبور.

٢ – مكانه: أي مكان السمع.

٣ – حالت بي الحال: أي تغيرت، الى شر وسوء.

سأسقيكَ ماءَ العَينِ ، ما أُسْعِدَتْ بهِ ،

وإنْ كانَتِ السُّقيا مِنَ العَينِ لا تُجدي[1]

أَعَيْنَيّ ! جودا لي ، فقد جُدْتُ للثّرَى

بأَنْفَسَ مِمّا تُسألانِ مِنَ الرِّفْدِ[2]

كأنّيَ ما استَمْتَعت منكَ بضَمّةٍ ،

ولا شَمّةٍ في مَلْعَبٍ لَكَ ، أَو مَهْد

أُلامُ لِما أُبدي علَيكَ مِنَ الأَسَى ،

وإنّي لأَخْفي منكَ أَضعافَ ما أُبْدي

مُحَمّدُ ! ما شيءٌ تُوُهِّمَ سَلْوَةً

لقلبيَ ، إلّا زادَ قلبي مِنَ الوَجْد

---

١ – ما أسعدت به : أي ما ساعدت وأعانت به .

٢ – الرفد : الجود والعطاء . يقول لعينيه : جودا لي بالدمع واسعفاني به . فإني جدت للتراب بشيء أنفس من الدمع الذي أسألكما أن تجودا به .

أرَى أخَوَيْكَ الباقِيَين كِلَيْهِما

يكونان للأحزان أوْرَى منَ الزّنْد[1]

إذا لَعِبا في مَلْعَبٍ لكَ ، لذّعا

فؤادي بمثلِ النّار ، عن غَير ما قَصْد

فَما فيهِما لي سَلوَةٌ ، بل حرارَةٌ ،

يَهيجانِها دوني ، وأَشقى بها وَحدي[2]

وأَنتَ ، وإنْ أُفردتَ في دار وَحْشَةٍ ،

فإنّي ، بدار الأنس ، في وَحشَة الفَرْدِ

علَيكَ سَلامُ اللهِ منّي تَحيّـــةً ،

ومِنْ كلّ غَيثٍ صادقِ البرق والرّعد

---

١ – أورى : أكثر اتقاداً . الزند : أداة لقدح النار .

٢ – دوني : نحوي .

تعليق

رثاء ابن الرومي في أهله وذويه حافـــل بالتلوّع وعميق الزفرات . فكأني به يشعر بالمصاب شعوراً يستولي على جميع قواه ، وإذا به يذكر ويتمثل طيف الفقيد ، ويتصور ساعاته الأخيرة ، ويرافقه في نزاعه ، فينازع معه ، وينكفىء على الألم ماضغاً ، محللاً ، فيزداد ألماً بقدر ما يمضغ ويحلل .

يستهل ابن الرومي قصيدته هذه بمخاطبة عينيه ، فيطلب منهما رفداً من الدموع لأنها تشفيه من بعض ما به . فلا شيء يعدل راحة البكاء عنـــد الشقاء . وابن الرومي لا يتعزّى كما يتعزّى سائر الناس ، انما عزاؤه ان يبكي ويتأمل وقع المصاب فيه ، وهو في تفجّعه على ولده الأوسط لا يؤثره على أخويه ، فقد جعله واسطة العقد لأنه الأوسط فقط ، وبديهيّ أن يكون حزنه عظيماً لأن ولده الأوسط هو الحبة الأولى التي انتثرت من حبات العقد وربما عظم شعوره بالمصيبة ان ابنه مات لما بدأت ملامح الرشد تظهر عليه فاذا بالمشاركة بينه وبين أبيه تضاعف محبة أبيه له ، حتى إذا فقده كان احساسه بفقده عظيماً . ثم يصف لنا كيف قضى الصغير نحبه بنزف شديد الحرّ عليه حتى أحاله من حمرة الورد الى صفرة الزعفران . وكأن شاعرنا يرغب في تعذيب نفسه كلما تذكر احتضار ولده ، لأن في هذا التذكر ما يشعل الحسرة . فالانسان يتوجع عندما يفكر في

توجع من يحب ، فليس تصوير ابن الرومي لولده وهو ينزف إلا مدعاة لزيادة لوعته . فقد كان « نفساً تساقط أنفساً » ولا يفوت ابن الرومي ان يذكر ما يشبه الصراع بينه وبين الموت ، فإذا لعن المنية فلأنه يعترف بهزيمته في صراعه لها ، فقد غصب ولده ولا شيء يمكن ان يعين الانسان على ظلم الحوادث سوى البكاء . ثم يقبل ابن الرومي على معنى في الرثاء جديد ، فهو يأبى عزاء من يعزونه بأن ولده أصبح في جنة الخلد ، وبأن له في ولديه الباقيين متعة يستغني بها عن الذاهب منهم ، لا لأنه يبغضهما بل لأنه لا يلقى فيهما ذلك العوض ، فلكل من الأولاد منزلته ومحبته ، فكما يشعر بوجود هذه المنزلة وهذه المحبة ازاءهما يشعر بفقدانها فيتفجع ، والأولاد عنده كالحواس ، فهل يعقل أن يتعزّى الأعمى عن ذهاب بصره بأنه يسمع ؟ ثم يعود الى مناجاة ولده وحثّ عينيه على سكب الدمع فكيف تبخلان بالدمع وهو الذي جاد على التراب بأغلى من الدمع . ثم يروعنا ، آخر شيء ، باعتراف من تلك الاعترافات الصادقة الجريئة التي يعرّي بها الانسان دخيلة نفسه ، فيقول : ان ولديه الباقيين ينغّصان عليه ولا يعزيانه ، فهو يتألم ويتحرق كلما رآهما يلعبان في ملعب أخيهما المفقود .

وهكذا تتوالى معانيه وصوره بأبيات نتبين فيها أباً وشاعراً يرثيان كما نتبين دفء العاطفة وحرارتها على تذويب جميل للكلمات لوناً ووقعاً وفناً .

ذكريات الشباب

قال من قصيدة يمدح بها عبيد الله
ابن عبدالله بن طاهر :

يُذَكِّرُني الشّبابَ هَوانُ عَتْبي ،
وَصَدُّ الغانِيــاتِ لَدَى عِتابي [1]

يُذَكِّرُني الشّبابَ سهامُ حَتفٍ ،
يُصِبن مَقاتِلي دونَ الإهابِ [2]

رَمَتْ قَلبي بهنّ ، فأقْصَــدَتْهُ
طَلوعُ النَّبلِ مِنْ خَلَلِ النِّقابِ [3]

---

١ — يقول : يذكره الشباب قلة احتفاء الحسان به ، فقــد هان عليهم عتابه ، وإذا عاتبهن ، أعرضن عنه .

٢ — الحتف : الموت . الإهاب : الجلد . والمراد بسهام الحتف ما ترسله الحسناء من نظراتها ، فتصيب منه موضــع القتل في قلبه ، دون أن تخترق جلد البدن .

٣ — أقصده السهم : أصابه فقتله في مكانه . طلوع : كثيرة الطلوع .

فراحَتْ ، وهيَ في بالٍ رَخيٍّ ؛

ورُحتُ بلَوْعَةٍ مِثلَ الشّهابِ [1]

ولَوْ شَهِدَ الشّبابُ ، إذنْ لراحتْ

وإنّ بها ، وعَيشِكَ ، ضِعفَ ما بي [2]

يُذَكّرُني الشّبابَ جِنانُ عَدْنٍ ،

على جَنَباتِ أنهـــارٍ عِذابِ

تُفَيّيءُ ظِلَّها نَفَحاتُ ريحٍ ،

تَهُزّ مُتونَ أغصانٍ رِطابِ [3]

إذا ماسَتْ ذوائِبُها ، تَداعَتْ

بَواكي الطّيرِ ، فيها ، بانتِحابِ [4]

---

١ – البال الرخي : الحال الحسنة المتسعة السهلة . الشهاب : شعلة النار الساطعة .

٢ - شهد : حضر .

٣ – تفييء ظلها : تحركه . المتون : الظهور .

٤ – ذوائبها : أي أعالي الأغصان .

يُذَكِّرُني الشّبابَ رِياضُ حَزْنٍ
تَرَنَّمُ ، بَيْنَها ، زُرْقُ الذّبابِ[1]

إذا شَمْسُ الأَصائِلِ عارَضَتْها ،
وقد كَرَبَتْ تَوارى بالحِجَابِ[2]

وأَلقَتْ ، جُنحَ مَغرِبِها ، شُعاعاً
مَريضاً مثلَ أَلحاظِ الكَعابِ[3]

يُذَكِّرُني الشّبابَ سَراةُ نَهْيٍ
نَميرِ المــــاءِ ، مُطّرِدِ الحَبابِ[4]

---

١ – الحزن : ضد السهل من الأرض .

٢ – الأصائل ، واحدها الأصيل : العشي . عارضتها : قابلتها . كربت : كادت . الحجاب : الأفق ، والمراد : أن الرياض تذكره الشباب إذا شمس الأصائل عارضتها عند المغيب .

٣ – جنح مغربها : أي أوله . الكعاب : الناهد .

٤ – السراة : الطريق . النهي : الغدير . النمير : الماء العذب الناجع . مطرد : متتابع . الحباب : نفاخات الماء التي تعلوه .

قَرَتْهُ مُزْنَةٌ بِكْرٌ ، وأَضحَى
تُرَقْرِقُهُ الصَّبا مثلَ السّرابِ [1]

على حَصباءَ ، في أَرضٍ هِجانٍ ،
كأَنّ تُرابَها ذَفِرُ المَلابِ [2]

لهُ حُبُكٌ ، إذا اطّرَدَتْ علَيهِ ،
قرأْتَ بهــا سُطوراً في كِتابِ [3]

تُذَكّرُني الشّبابَ صَبًا بَليلٌ ،
رَسيسُ المسّ ، لاغِبَةُ الرّكابِ [4]

---

١ – قرته : جمعته . المزنة : القطعة من السحاب فيها ماء . البكر : السحابة الغزيرة . ترقرقه : تحركه حتى يجيء ويذهب ويتلألأ ويلمع . الصبا : الريح الشرقية .

٢ – الهجان : الأرض الكريمة . الذفر : ذو الرائحة الطيبة . الملاب : ضرب من الطيب .

٣ – له : أي للنهي . الحبك: تجعد الماء وتكسره . اطردت : تتابعت، والفاعل يعود الى الصبا . بها : أي بهذه الحبك .

٤ – البليل : التي ابتلت بالمــاء وبردت . رسيس المس : لينة المس . لاغبة : تعبة . الركاب : الإبل . الرياح اللواغب : أي المتعبة لطول سيرها ، ولأن الريح تشبه بالإبل .

أتتْ من بعدِ ما انسَحبتْ ، مَليًّا،

على زَهرِ الرُّبى ، كلَّ انسِحابِ [1]

وقد عَبِقَتْ بها ريّا الخُزامى ،

كريّا المِسْكِ ، ضُوّعَ بانتِهابِ [2]

يُذكّرُني الشّبابَ وَميضُ بَرْقٍ ،

وسَجْعُ حَمامَةٍ ، وحَنينُ نابِ [3]

فَيا أَسَفا ، ويا جَزَعا عليهِ !

ويا حَزَنا إلى يوْمِ الحسابِ ! [4]

أأُفْجَعُ بالشّبابِ ولا أُعزّى ؟

لقَدْ غفَلَ المُعزّي عن مُصابي

---

١ ـ ملياً : زمناً طويلاً .

٢ ـ الريا : الرائحة الطيبة . الخزامى : نبت طيب الرائحة . ضوع : هيجت رائحته .

٣ ـ الناب : الناقة المسنة .

٤ ـ يوم الحساب : يوم القيامة .

رثاء البصرة

[قام في أيام الخليفة المعتمد رجل اسمه علي بن محمد يدّعي النسب العلويّ. فاستمال اليه قلوب العبيد من الزنج بالبصرة ونواحيها، وأفسدهم على مواليهم حتى اجتمع اليه منهم ومن سواهم خلـــق كثيرون، وما لبث حتى عظم شأنه واشتدت شوكته، وانبثّ عسكره السودان في البلاد العراقية وغيرها. وفي سنة ٨٧٠ أغاروا على البصرة فنهبوها وأحرقوها، فوقف ابن الرومي يرثيها ويصف ما حلّ بها من الفظائع].

ذادَ عَنْ مُقْلَتي لَذيذَ ٱلْمَنامِ

شُغْلُها عَنْهُ بِٱلدُّموعِ ٱلسِّجامِ [١]

أَيُّ نَوْمٍ مِنْ بَعْدِ ما حَلَّ بالبَصْرَةِ،

ما حَلَّ مِنْ هَناتٍ عِظامِ! [٢]

---

١ — ذاده — ذوداً: دفعه، طرده. الدموع السجام: المنصبّة؛ من سجم — سجوماً الدمع: سال.

٢ — الهنات ج هنة وهي كناية عن كل اسم جنس، ومعناهـــا الشيء. — يقول: كيف يستطاع النوم بعد ما حل بالبصرة من المصائب العظيمة؟

لَهْفَ نَفْسِي عَلَيْكِ يا فُرْضَةَ ٱلْبُلْدانِ،
لَهْفـــاً يَبْقَى عَلى الأَعْوامِ [1]

لَهْفَ نَفْسِي لِجَمْعِكِ ٱلْمُتَفانِي ،
لَهْفَ نَفْسِي لِعِزِّكِ ٱلْمُسْتَضامِ [2]

بَيْنَما أَهْلُهـــا بِأَحْسَنِ حالٍ ،
إِذْ رَماهُمْ عَبِيدُهُمْ بِٱصْطِلامِ [3]

دَخَلُوها كَأَنَّهُمْ قِطَـــعُ ٱللَّيْلِ
إِذا راحَ مُدْلَهِـــمَّ ٱلظَّلامِ

أَيَّ هَوْلٍ رَأَوْا بِهِمْ ! أَيُّ هَوْلٍ
حُقَّ مِنْهُ يَشِيبُ رَأْسُ ٱلْغُلامِ !

---

١ – الفرضة ، من النهر : ثلمة ينحدر منها الماء وتصعد منها السفن ، ويستقى منها ؛ من البحر : محط السفن .

٢ – المستضام : المظلوم والذي نُقص حقه .

٣ – الاصطلام : الاستئصال .

إِذْ رَمَوْهُمْ بِنارِهِمْ مِنْ يَمِينٍ

وَشِمالٍ ، مِنْ خَلْفِهِمْ وَأَمـامِ

كَمْ أَغَصُّوا مِنْ شارِبٍ بِشَرابٍ ،

كَمْ أَغَصُّوا مِنْ طاعِمٍ بِطَعامِ !

صَبَحُوهُمْ ، فَكابَدَ ٱلْقَوْمُ مِنْهُمْ

طُولَ يَوْمٍ كَأَنَّهُ أَلْفُ عامِ [1]

ما تَذَكَّرْتُ ما أَتى مِنَ ٱلزِّنْجِ إِلَّا

أُضْرِمَ ٱلْقَلْبُ أَيَّمـا إِضْرامِ

عَرِّجا صاحِبَيَّ بِٱلْبَصْرَةِ ٱلزَّهْراءِ

تَعْرِيجَ مُدْنَـفٍ ذِي سَقامِ [2]

---

١ – صبحوهم : أتوهم صباحاً .

٢ – عرّج على المكان : وقف عنده . أدنف المريض : ثقل ؛ وأدنف المرض فلاناً : أثقله ؛ فهو مدنِف ومدنَف . يقول : ميـلا يا صاحبيّ الى البصرة ، وقفا بها وقوف محب أمرضه ما نزل بها من المصائب .

فَاسْأَلاها — وَلا جَوابَ لَدَيْها
لِسُؤَالٍ — وَمَنْ لَها بِالْكَلامِ :

أَيْنَ ضَوْضاءُ ذٰلِكَ الْخَلْقِ فِيها ،
أَيْنَ أَسْواقُها ذَواتُ الزِّحامِ ؟

أَيْنَ فُلْكٌ فِيها وَفُلْكٌ إِلَيْها
مُنْشَآتٌ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ [1]

أَيْنَ تِلْكَ الْقُصُورُ وَالدُّورُ فِيها ،
أَيْنَ ذاكَ الْبُنْيانُ ذُو الْأَحْكامِ

بُدِّلَتْ تِلْكُمُ الْقُصُورُ تِلالاً
مِنْ رَمادٍ وَمِنْ تُرابٍ رُكامِ [2]

---

١ — الفلك : السفن ، مفردها الفلك أيضاً يؤنث ويذكّر . المنشآت : السفائن المرفوعات القلوع . — يقول : أين تلك السفن التي كانت فيها والتي كانت تسير اليها ، وهي في البحر كالجبال بقلوعها المرفوعة ؟ — وفي هذا البيت إشارة الى ان البصرة كانت فرضة عظيمة .

٢ — الركام : الشيء المتراكم بعضه فوق بعض ؛ في هذا البيت إشارة الى احراق المدينة وهدمها .

وَخَلَتْ مِنْ حُلولِها ، فَهْيَ قفرٌ ،
لَا تَرَى ٱلْعَيْنُ بَيْنَ تِلْكَ ٱلإِكامِ [1]

غَيْرَ أَيْدٍ وَأَرْجُلٍ بائِناتٍ ،
نُبِذَتْ بَيْنَهُنَّ أَفْلَاقُ هامِ [2]

وَوُجوهٍ قَدْ رَمَّلَتْها دِماءٌ ،
بِأَبِي تِلْكُمُ ٱلْوُجوهُ ٱلدَّوامِي [3]

وُطِئَتْ بِٱلْهَوانِ وَٱلذلّ قَسْراً ،
بَعْدَ طُولِ ٱلتَّبْجيلِ وَٱلإِعْظامِ

---

١ ــ الحلول ج حالّ وهو النازل في المكان . الإكام ج أكمة وهي التلّة ، (أي إكام الرماد والتراب) .

٢ ــ بان الشيء عن الشيء : انقطع عنه . الأيدي والأرجل البائنات : المنفصلات عن الجسد .

٣ ــ رمّلتها : لطّختها بالدم . بأبي : الباء للتفدية .

فَتَراها ، تَسْفِي ٱلرِّياحُ عَلَيْها ،
جارِياتٍ بِهَبْوَةٍ وَقَتامِ [1]
خاشِعاتٍ ، كأَنَّها باكِياتٌ ،
بادِياتُ ٱلثُّغُورِ لَا لِٱبْتِسامِ [2] ...

---

١ و ٢ — سفت الريح التراب : ذرته أو حملته . الهبوة : الغبـــار . القتام : الغبار الضارب الى السواد . — يقول : ترى قصور البصرة مهدّمة تجرّ عليها الرياح أذيالها حاملة من ذلك الركام غباراً قاتماً .

تعليق

وبعد ، ألا نحسّ ونحن نقرأ هذه الأبيات بأن ابن الرومي يغمس قلمه بدم قلبه المتفجّع ، أمام أشلاء مبعثرة بين تلال من رماد ، وأوجه ملطخة بالدماء ، يجري عليها الغبار والدخان ؛ أوجه آباء وأمهات وشبان وشابات ورضّع قد فطموا « بشبا السيف قبل حين الفطام » .

ألا نوجم لذلك المنظر الرهيب ، منظر مدينة كانت حاضرة للعمران فأصبحت بين ليلة وضحاها تلالاً « من رماد وركام » فلا ترى العين ، أينما اتجهت ، إلا تراباً يذرى ، ودخاناً يتصاعد ، فوق وجوه ذليلة مشوّهة ، ولا تسمع الأذن ، إلا أنين الرياح ، في سكون الدمار والخراب ، ولا يشتمّ الأنف إلا رائحة الدخان .

كانت المدينة في الأمس ضوضاء وزحاماً وابتهاجاً ، فغدت صراخاً وبكاء وعويلاً ، أما الآن فهي تراب ودخان وصمت رهيب . فهذه القصيدة تبدو ملحمة من ملاحم الموت والدّمار ، ذات عدّة أناشيد ، في كل نشيد مشهد . ونغمة ، وفي كل مشهد صورة مبكية ، وفي كل نغمة آهة وزفرة تتكرّران مع كل انطلاقة وجدان .

الهجاء

[يدل شعر ابن الرومي ، على أنه كان مفطوراً على الحنان . فكيف يكون مع ذلك شريراً ؟ وكيف يتسع فؤاده الى الرغبة في الكيد والايذاء ؟ بل كيف يمكن على القائل :

ومثلي رأى الحسنى بعينٍ جليّةٍ
وأغضى عن العوراءِ غيرَ مؤنّبِ

أن يعود لا يرى الحسنى فيغضي عن العوراء ، بل يجتلي العوراء ، فيغضي عن الحسنى ؟ فلنسمعه يجب قائلاً :

ولستُ بتقليبِ اللّسانِ مُصارما
خليلي ، إذا ما القلبُ لم يتقلّبِ

ولنتساءل ؛ ما الذي كان يحمل على تقليب لسان ذلك الشاعر المطبوع على المسالمة والعطف وحسن المودّة ؟ ما هي الأسباب التي ألجأته الى شهر ذلك السلاح البغيض ؟ انها :

١ - **حرمانه** . عاش ابن الرومي في زمن كان للأدباء والكتّاب حظ كبير في تولّي الوزارات والمناصب ، فراح

يعلّل النفس بأن شعره وثقافته وحدهما سيكفلان له النجاح والارتقاء الى أعلى المراتب. وغاب عنه ان العلم وحده لا يجدي، وان الحيلة وحدها، قد تغني عنه في زمن المكايد والسعايات والمصانعة. وهو عن كل ذلك بعيد! كما فاته أيضاً ان ذوي السلطان، لا يثيبون الشاعر إلا أملاً منهم بنصرته، اذا ما اقتضت الحاجة. فأيّ أمل يضعونه في رجل هو في أنظارهم موسوس مجنون؟

فلهذا كله لم ينل من الحظوة ما ناله غيره ممن هم أقلّ منه قدراً. لا بل كان اذا أثيب مرة حرم مرات، واذا ألحّ في طلب الجائزة قيل له: خذ شعرك وامدح به غيرنا! أما المماطلة فكانت أيسر مصائبه:

جعلت فداك، لم أسألك
ذاك الثوب للكفن
سألتكه لألبسه
وروحي بعد في البدن!

كان في عرف الجميع يومئذ ان العطاء حق واجب للمادح على الممدوح. فلا غرابة إذن في ان يغضب شاعرنا اذا ما منع وحرم وأجحف حقه، بينما غيره كالبحتري يرتع في النعمة، فتثور ثائرته ويحسد ويهجو.

٢ – **عبث الناس به** لغرابة أطواره وتطيّره. كانوا يسوقون إليه من يتطيّر منهم ، فيضحكون مما يبكيه ويتندرون بما يدميه ، فيسلّط لسانه على المتحرشين به .

٣ – **دقة احساسه** . كان يضيق ذرعاً بأشياء وأشكال وأصوات وأشخاص لا تلائم طبعه ، فيتأذّى منها وينتقم صابّاً عليها جام غضبه .

وإذا أضفنا الى كل ذلك فواجعه في بنيه وذويه جميعهم ، وطمع الطامعين فيه وفي ممتلكاته الزهيدة ، وتعطشه الى ملاذ الدنيا تعطشاً لم يرو ، فهمنا كيف ان ذلك الرجل المغبون ، أصيب بجرح بليغ لم يندمل ، لأن يد الحياة ما زالت تمتد إليه لتعمّقه ، وفهمنا لماذا كان يتبرّم فيخلط مرارة قلبه بمرارة لسانه] .

اللحية الطويلة

إنْ تَطُلْ لِحيَةٌ عليك، وتعرُضْ ،
فالمَخـــالي مَعروفَــةٌ للحَميرِ

عَلّقَ اللهُ في عِذارَيْكَ مِخلاةً ،
ولَكِنّها بِغَـــيرِ شَعيرِ[1]

لو غَدا حُكمُها إليّ ، لَطارَتْ
في مَهَبّ الرِّياحِ كلَّ مَطيرِ

أَلقِها عنكَ ، يا طَويلةُ ! أو لا ،
فاْحتَبِسْها شرارَةً في السَّعيرِ

أَرْعِ فيها المُوسَى ، فإنّكَ منها ،
يَشْهَدُ اللهُ ، في إثامٍ كبيرِ[2]

---

١ – عذاريك : جانبي وجهك المحاذيين للأذن .

٢ – أرع : سرّح . الإثام : الإثم .

أيّمـا كَوْسَجٍ يراها ، فيَلقى
رَبَّهُ ، بعدَها ، صَحيحَ الضَّميرِ ؟ [1]

هوَ أحرَى بأنْ يَشُكَّ ، ويَغرى
باتّهامِ الحَكيمِ في التَّقديرِ [2]

مـا تَلَقَّاكَ كَوْسَجٌ قَطّ ، إلاَّ
جَوَّرَ اللهَ أيّمـا تَجويرِ [3]

لِحيَةٌ أُهْمِلَتْ ، فسالَتْ وفاضَتْ ،
فإلَيهـا يُشيرُ كُلُّ مُشيرِ

---

١ — الكوسج : الخفيف اللحية الذي لا ينبت الشعر على عارضيه ، وإنما على ذقنه .

٢ — يغري بالشيء : يولع به . الحكيم : من الأسماء الحسنى . التقدير : تقسيم الأرزاق .

٣ — جوره : نسب إليه الجور .

ما رأتْها عينُ امرِئٍ ، ما رآها
قَطّ ، إلاّ أَهَلّ بالتَّكبيرِ [1]

رَوْعةٌ تَستَخِفُّهُ ، لم يُرَعْها
مَنْ رَأى وَجهَ مُنكَرٍ ونَكيرِ [2]

فاتّقِ اللهَ ذا الجَلالِ ، وغَيِّرْ
مُنكَراً فيكَ ، ممكِنَ التّغييرِ

أو فقَصِّرْ منها ، فحَسبُكَ منها
نِصْفُ شِبرٍ علامةَ التّذكيرِ

لوْ رأى مثلَها النّبيُّ ، لأَجرَى
في لِحَى النّاسِ سُنّةَ التّقْصيرِ

---

١ – أهلّ : رفع صوته . التكبير : القول الله أكبر .

٢ – الروعة : الفزعة . استخفه الفزع : حركه وأخرجه عن رباطة جأشه . منكر ونكير : شيطانا الموت .

واستَحَبّ الإحفاءَ فيهنّ والحلقَ،

مكانَ الإعفاءِ والتّوفيرِ[1]

هجاء سليمان الطنبوري:

أبو سُليمانَ لا تُرضي طريقتُهُ

لا في غناءٍ، ولا تعليمِ صُبْيانِ

له إذا جاوَبَ الطّنْبورُ مُحتَفِلاً

صوْتٌ بمصرٍ وصوْتٌ في خُراسانِ

وتحسَبُ العينُ فَكّيْهِ إذا اختَلَفا

عندَ التنغّمِ، فكّيْ بَغلِ طحّانِ

---

١ – الاحفاء: أن يبالغ في قص الشوارب والأخذ منها. الاعفاء: ترك اللحى تطول فلا يؤخذ منها. التوفير: أي توفير شعر اللحية، وهو الاعفاء.

هجاء البحتري

قد قُلتُ ، إذ نَحلوهُ الشّعرَ : حاشَ لهُ !
إنَّ البُرُوكَ بهِ أَولى مِنَ الخَبَبِ [1]

البُحتُرِيُّ ذَنُوبُ الوَجـــهِ نَعرِفُهُ ؛
ومـــا رأَيْنا ذَنُوبَ الوَجهِ ذا أَدَبِ [2]

أنّى يَقولُ منَ الأَقوالِ أَثقَبَهـــا ،
مَنْ راحَ يَحْمِلُ وَجهاً سابغَ الذَّنَبِ [3]

أَوْلى بمَنْ عَظُمَتْ في النّـــاسِ لحيَتُهُ ،
مِن نِحْلَةِ الشِّعرِ ، أن يُدعَى أَبا العَجَبِ

---

١ ـ البروك : للجمل كالجلوس للانسان . الخبب : ضرب من العدو ، وبحر من بحور الشعر ، وهو المراد هنا ؛ شبه البحتري بالجمل يصلح للبروك ، ولا يصلح لنظم الشعر .

٢ ـ ذنوب الوجه : أي له ذنب في وجهه ، ويريد لحيته .

٣ ـ أثقبها : أنفذها . سابغ : طويل .

وَحَسْبُهُ ، مِنْ حِباءِ القَوْمِ ، أَنْ يَهَبوا
لَهُ قَفاهُ ، إِذا مَـا مَرَّ بِالعُصَبِ [1]

مَـا كُنتُ أَحسَبُ مَكسُوًّا بِلِحيَتِهِ ،
يُعْفَى مِنَ القَفْدِ ، أَوْ يُدعى بِلا لَقَبِ [2]

لَهفي عَلى أَلفِ مُوسَى في طَويلَتِهِ ،
إِذا ادَّعى أَنَّـهُ مِنْ سادَةِ العَرَبِ

أَوْ قَـالَ : إِنِّي قَريعُ النَّاسِ كُلِّهِمُ
في الشِّعرِ ! وَهوَ سَقيمُ الشِّعرِ وَالنَّسَبِ [3]

---

١ - الحباء : العطاء ، والمراد ما يأخذه بشعره من العطاء . القفا : مؤخر العنق . أن يهبوا له قفاه : أن لا يصفعوا قفاه . العصب ، واحدتها عصبة : جماعة الرجال .

٢ - القفد : صفع القفا بباطن الكف . يدعى بلا لقب : أي أن يعطى لقباً يدل على الذم .

٣ - القريع : المقارع ، المغالب .

الحَـظ أعمى ، ولَولا ذاكَ لَمْ تَرَهُ
للبُحْتُرِيّ ، بــلا عَقْلٍ ولا حَسَبِ

وَغْدٌ ، يَعافُ مَديحَ النَّاسِ كلّهِمُ ،
ويَطلُبُ الشَّتمَ منهُمْ جـاهدَ الطَّلَبِ [1]

داءٌ مِنَ اللؤمِ ، يَستَشفي الهِجاءَ لَهُ ،
كذلكَ الحَكُّ يَستَشفيهِ ذو الجَرَبِ [2]

أراكَ لم تَرْضَ مـا أَهدى لَهُ نَفَرٌ
مِنْ شَتمِ أُمٍّ لَئيمٍ خِيمُها ، وأَبِ [3]

فارضَ الذي أَنا مُهديهِ إليهِ ، لهُ ،
من مُرمِض القَذع ، وارْضَ النَّارَ للحطبِ [4]

---

١ – الوغد : الأحمق الضعيف الدنيء . يعاف : يكره . جاهد الطلب : جاداً في الطلب .

٢ – يستشفي الهجاء له : أي يطلب الهجاء شفاء لهذا الداء .

٣ – أراك : أظنك ؛ يخاطب شخصاً . الخيم : الطبع .

٤ – المرمض : الموجع والمحرق . القذع : القول الفاحش . وارض النار للحطب : أي وارض له هجاء محرقاً كالنار للحطب .

قُبحاً لأشياءَ يأتي البُحتُرِيُّ بهـــا ،
من شِعرِهِ الغَثّ ، بَعدَ الكَدّ والتّعَبِ[1]

كأنَّها ، حينَ يُصغي السّامعونَ لها ،
ممَّنْ يُميِّزُ بينَ النَّبـــعِ والغَرَبِ[2]

رُقى العَقارِبِ ، أو هَذْرُ البُناةِ ، إذا
أضحوا على شَعَفِ الجدرانِ في صَخَبِ[3]

وقد يَجيءُ بخَلْـــطٍ ، فالنّحاسُ لَهُ ،
وللأوائِلِ مـــا فيهِ مِنَ الذَّهَبِ[4]

---

١ – الغث : الضعيف الهزيل .

٢ – النبع : شجر صلب تصنع منه القسي . الغرب : شجر هش رخو ؛ يكنى بهما عن السمين والغث من الأمور .

٣ – رقى العقارب : ما يرقى به من تلدغه العقارب ؛ حيث يتكلم الراقي كلاماً غير مفهوم . الهذر: سقط الكلام . البناة: البناؤون . شعف الجدران : أعاليها ، واحدتها شعفة .

٤ – بخلط : أي بخلط من نحاس وذهب ، والمراد يجيء بشعر مختلط فيه القبيح والحسن .

سَمِينُ ما نَحَلُوهُ ، مِنْ هنا وَهُنـــا ،
والغَثُّ منـــهُ صَرِيحٌ غيرُ مُجتَلَبِ [1]

يُسِيءُ عَفًّا ، فإنْ أَكْدَتْ وَسائِلُهُ ،
أَجادَ لِصًّا شَدِيدَ البأْسِ والكَلَبِ [2]

إنَّ الوَليـــدَ لَمِغوارٌ ، إذا نَكَلَتْ
نَفْسُ الجَبانِ ، بَعيدُ الهَمِّ والسَّرَبِ [3]

عَبْدٌ ، يُغِـــيرُ على المَوْتَى ، فَيَسْلُبُهُمْ
حُرَّ الكَلامِ بجيشٍ غـــيرِ ذي لَجَبِ [4]

---

١ ـ نحلوه : نسبوا إليه من الشعر . صريح : أي خالص له .

٢ ـ يسيء عفاً : أي يـــأتي بالسيء من الشعر إذا عفّ عن السرقة . أكدت : عجزت وقصرت . الكلب : شدة الإلحاح والحرص على الشيء .

٣ ـ نكلت : نكصت وجبنت . بعيد الهم : أي عزوم على الأشيـــاء البعيدة المرام . السرب : الذهاب في الأرض .

٤ ـ اللجب : الصوت والجلبة .

مـــا إنْ تَزالُ تَراهُ لابِساً حُلَلاً ،
أَسلابَ قومٍ مَضَوْا في سالِفِ الحُقُبِ[1]

شِعْرٌ ، يُغيرُ علَيهِ باسِلاً بَطَــلاً ،
ويُنشِدُ النَّـــاسَ إيّاهُ على رِقَبِ[2]

يَقُولُ مُستَمِعوهُ الجاهِلونَ بهِ :
أَحسَنْتَ يا أَشعَرَ الحُضَّـــارِ والغَيَبِ[3]

حتى إذا كَفّ عن غاراتِهِ ، فَــلَهُ
شِعْرٌ يَئِنّ مُقـــاسيهِ مِنَ الوَصَبِ[4]

شِعْرٌ ، كنافِضِ حُمّى الخَيبَرِيّ ، لَهُ
بَرْدٌ وكَرْبٌ ، فمَنْ يَرويهِ في كُرَبِ[5]

---

١ – الحلل : الثياب . الحقب : الدهر والسنون .

٢ – الرقب : الحذر والخوف .

٣ – الغيب : الغائبون .

٤ – الوصب : الوجع .

٥ – نافض الحمى : حمى الرعدة ، ينتفض صاحبها من البرد . الكرب : الحزن الذي يأخذ بالنفس .

كأنّهُ الغَرِقُ الشّتْوِيُّ ، مَصرَدُهُ
بغيرِ روحٍ ، وما للرّوحِ والشَّجِبِ ؟[1]

قــل للعَلاءِ أَبي عيسَى الذي نَصَلَتْ
بهِ الدّواهي ، نُصولَ الألّ في رَجَبِ[2]

وآمَنَ اللهُ لَيلَ الخائِفينَ بِـــهِ ،
بَلْهَ النّهارَ ، وضمَّ الأَمْرَ ذا الشُّعَبِ :[3]

أَيسرِقُ البُحتُرِيُّ النَّــاسَ شِعرَهُمُ ،
جهراً ، وأَنتَ نَكالُ اللّصّ ذي الرِّيَبِ ؟[4]

وتارَةً يُترِزُ الأَرواحَ مَنطِقُــهُ ،
فالخَلْقُ مــا بَينَ مَقْتُولٍ ومُغتَصَبِ[5]

---

١ ـ المصرد ، من صرد : وجد البرد سريعاً . الشجب : الهالك . يقول: ان شعر البحتري يشبه غريقاً في الشتاء ، وجد البرودة سريعاً ، فهي برودة بغير روح ، ومن أين الروح للميت ؟

٢ ـ نصلت : خرجت ، ذهبت . الأل : السلاح .

٣ ـ بله : دع . ذا الشعب : أي النواحي المتفرقة .

٤ ـ الريب ، واحدتها الريبة : التهمة .

٥ ـ يترز الأرواح : أي يزهقها .

نَكِّلْهُ ، إِنَّ أُناساً قبلَهُ رَكِبُوا ،
بدونِ مـــا قد أَتاهُ ، باسِقَ الخَشَبِ

والحكمُ فيهِ مُبينٌ غَـــيرُ مُلتَبِسٍ ،
لو رِيمَ فيـــهِ خلافُ الحَقّ لَمْ يُصَبِ[1]

إِذا أَجـــادَ ، فأَوْجِبْ قَطعَ مِقوَلِهِ ،
فقَـــد دَهى شُعراءَ النَّاسِ بالحَرَبِ[2]

وإِنْ أَساءَ ، فأَوْجِبْ قَتلَهُ قَوَداً
بِمَنْ يُميتُ ، إِذا أَبْقَى على السَّلَبِ[3]

---

١ – مبين: واضح . ريم : أريد . لم يصب : أي لم يدرك خلاف الحق .

٢ – المقول : اللسان . الحرب : سلب المال ، والمراد سلب الأشعار .

٣ – يقول : ان البحتري اذا لم يسلب الشعراء حر كلامهم يـــأتي بشعر رديء سيء يقتل الناس ، لذلك يجب قتله قوداً بمن يقتلهم .

هجاء المشمش

إذا ما رأيتَ ، الدَّهرَ ، بستانَ مِشمِشٍ ،
فأيقِنْ ، بحقٍّ ، أنّــهُ لِطَبيبِ[1]

يُغِلّ لَهُ مــا لا يُغِلّ لربِّهِ ؛
يُغِلّ مريضاً حَملُ كلّ قَضيبِ[2]

جاحظ العينين :

تخالُهُ أبــداً منْ قُبحِ مَنْظَرِهِ
مُجاذِباً وَتَراً ، أو بالِعــاً حَجَرا

كأنّــهُ ضِفدَعٌ في لُجّــةٍ ، هَرِمٌ
إذَا شَدَا نَغَماً ، أو كرّرَ النّظَرَا

---

١ - المراد : أنه ملك الطبيب لا ملك صاحبه .

٢ - لربه : أي لصاحب البستان .

وجه عمرو

وجهُكَ ، يا عَمْرو ، فيه طولُ ؛
وفي وُجوهِ الكِلابِ طُولُ

مَقابِحُ الكَلْبِ فيكَ طُرًّا ،
يَزولُ عنها ، ولا تَزولُ[1]

وفيهِ أشياءُ صالِحاتٌ ،
حَماكَها اللهُ والرّسولُ :[2]

فالكَلْبُ وافٍ ، وفيكَ غَدْرٌ ،
ففيكَ عَنْ قَدْرِهِ سُفُولُ

---

١ – طراً : جميعاً . يزول عنها ولا تزول : أي يترك الكلب هذه المقابح وأنت لا تتركها .

٢ – حماكها : منعك إياها .

وقَــدْ يُحامي عَنِ المَواشي ،
وما تُحــامي ولا تَصولُ

وأنتَ مِن أهلِ بَيْتِ سوْءٍ ،
قِصّتُهُمْ قِصّــةٌ تَطُولُ[1]

وُجوهُهُمْ للوَرَى عِظــاتٌ ،
لكِنّ أقفاءَهُمْ طُبُولُ[2]

نَستَغفِرُ اللهَ ، قَــدْ فَعَلْنا
مــا يَفعَلُ المائِقُ الجَهُولُ[3]

ما إنْ سألْناكَ ما سألْنا ،
إلاّ كما تُسألُ الطُّلُولُ

---

١ — سوء : شر .

٢ — الأقفاء ، واحدها القفا: مؤخر العنق . يقول : ان وجوههم لقبحها تعظ الناس فتدعوهم الى الزهد في الدنيا وملذاتها . ولكن أقفاءهم تدعوهم الى اللّهو بصفعها فكأنها طبول يضرب عليها . وصفع القفا يدل على لؤم المصفوع وذله .

٣ — المائق : الأحمق .

ضَمِّتْ وَعَيَّتْ ، فَلا خِطابٌ ،
وَلا كِتابٌ ، وَلا رَسُولُ

مُسْتَفْعِلُنْ فاعِلُنْ فَعُولُ ،
مُسْتَفْعِلُنْ فـــاعِلُنْ فَعُولُ

بَيْتٌ كَمَعناكَ ، لَيسَ فيــهِ
مَعْنًى ، سِوَى أَنَّهُ فُضولُ [1]

---

١ — الفضول ، واحدها فضل : الزيادة . ويستعمل الجمع استعمال المفرد في الزيادة التي لا خير فيها .

هجاء دبس

من قصيدة يهجو بها المؤذن دبساً :

قُولا لدبسٍ ، شرُّ مَنْ
يَطَأُ التّرابَ ، ويُرمَسُ [1]

تبًّا لدَهْرٍ ، أَنتَ فيهِ
مُقَدَّمٌ ومُرَأّسُ

لوْ أَنّ إبْليساً رَآكَ
لكادَ ذُعْراً يُبلِسُ [2]

ولراعَه وجهٌ ، من التّحسينِ ،
قَيْءٌ أَمْلَسُ [3]

---

١ – يرمس : يدفن في التراب . والمراد : شر من يحيا ويموت من المخلوقات .

٢ – يبلس ، من أبلس : أصابته الحيرة والخوف والدهشة .

٣ – راعه : أفزعه .

وكأنَّ صوْتكَ ، حينَ تصدَحُ
صوتُ رَعْــدٍ يَرْجُسُ [1]

فــإذا صَدَحْتَ مُؤذّناً ،
كادَتْ تَمُوتُ الأَنْفُسُ

وإذا جلستَ ، أذى خُشامُكَ
مَنْ يَضُمّ المَجْلِسُ [2]

فكأنَّما الكِرياسُ يَنْفُخُ
منكَ ، حــينَ تَنَفسُ [3]

وإذا نهضتَ ، كَبا بوجهِكَ
للجَبــينِ المَعْطِسُ [4]

---

١ — يرجس : يرعد .

٢ — الخشام : الأنف العظيم .

٣ — الكرياس : الكنيف في أعلى السطح بقناة من الأرض .

٤ — كبا : انكب على وجهه . المعطس : الأنف .

فالأَنْفُ منـكَ لعُظْمِهِ ،
أَبداً ، لرَأْسِكَ يَعكِسُ
حتى يظنّ النَّاسُ أَنّـكَ
في الـتّرابِ تَفَرَّسُ
ولأَنْتَ أَجْـدَرُ بالَّذي
قـالَ الفَتى المُتَنَطِّسُ :[1]
إنْ كانَ أَنفُكَ هكذا ،
فالفيلُ عنـدَكَ أَفطَسُ
وإذا جَلَسْتَ على الطَّريقِ ،
ولا أرى لَـكَ تَجْلِسُ
قيلَ : السَّلامُ عليكُما !
فتُجيبُ أَنتَ ، ويَخرَسُ[2]

---

١ – المتنطس : المتأنق في كلامه .

٢ – يخرس : أي يخرس أنفك فلا يرد السلام .

هجاء ابن طالب

من هجاء له في ابن طالب الكاتب :

وهَل يَتمارى النَّاسُ في شؤم كاتبٍ ،
لعَينَيه لونُ السَّيف ، والسَّيفُ قاضبُ [1]

ويُدْعَى أَبُوهُ طالِبـاً ، وكفاكُمُ
بـه طِيرَةً ، إنَّ المَنيَّةَ طالِبُ [2]

عيسى البخيل :

يُقتِّرُ عيسى على نفسِهِ
وليس بباقٍ ولا خالدِ

---

١ – تمارى : شك . لعينيه لون السيف : أي عيناه زرقاوان ؛ يتشاءم بزرقة العينين كما كان يتشاءم بها العرب، يستدلون بها على اعتلال نسب الشخص، وأنه ليس منهم .

٢ – يجعل بين اسمه والموت صلة يتطير منها لأن الموت طالب أبداً قبض الأرواح .

فلو يستطيعُ لِتقتيرِهِ
تنفّسَ من مِنْخرٍ واحدِ

الأحدب :

قَصُرتْ أخادِعُه وغارَ قَذالُهُ
فكأنّهُ مُتربِّصٌ أَن يُصْفَعا [1]
وكأنما صُفِعَتْ قَفاهُ مَرَّةً
وأحسّ ثانيةً لها فتجمَّعا

شَنطفُ :

شَنطفُ يا عودةَ السَّمواتِ والأَرْ
ضِ وشمسِ النَّهارِ والقمرِ
إنْ كانَ إبليسُ خالقاً بشراً
فأنتَ عندي من ذلكَ البشَرِ

---

١ – الأخادع : عروق في العنق . القذال : مؤخر الرأس .

صوَّرَكَ الماردُ اللّعينُ فأعطَتْ
لكَ يَداهُ مقابحَ الصُّورِ

أبو حفص :

يا صَلعةً لأَبي حَفْصٍ ممرّدَةً
كأنَّ ساحَتَها مِرآةُ فُولاذِ[1]
ترنُّ تحتَ الأَكُفِّ الواقعاتِ بها
حتّى ترِنَّ بها أَكنافُ بغداذِ[2]

كنيزة :

شَاهدْتُ في بعضِ ما شَاهدْتُ مُسمِعَةً
كأنّما يومُها يومَانِ في يومِ
تَظلُّ تُلقي على منْ ضمَّ مَجْلِسُها
قولاً ثَقيلاً على الأَسماعِ كاللَّوْمِ

١ – صلعة ممرّدة : أي مصقولة .

٢ – الأكناف : النواحي . بغداذ : مكان في بغداد .

لهـا غِناءٌ يُثيبُ اللهُ سامِعَهُ
ضِعفَي ثَوابِ صَلاةِ الليْلِ والصَّوْمِ[1]
ظَلِلْتُ أَشْربُ بالأَرْطالِ لا طرَباً
عليهِ بل طلباً للسُّكرِ والنَّوْمِ[2]

فضيل :

لقـد أبدع ابن الرومي في وصف الثقلاء ، حتى ليعجب أبو هلال العسكري من دقة معانيه في وصفهم :

أَنتَ فضلٌ ، وفضلةُ الشيءِ لغْوٌ
ثم أَردفت ذِلّة التصغيرِ !
حُقرَ الفضلُ ثمَّ صُغِّرتَ عنه
زادكَ اللهُ يا صغيرَ الحقيرِ ![3]

---

١ – الثواب : خلاف العقاب .

٢ – الأرطال : جمع . مفردها رطل . أي اثنتا عشرة أوقية .

٣ – الفضل : هو الزيادة من كل شيء . والزيادة لغو وفضول .

فقبولُ النُفوسِ إياكَ عنــدي
آيةٌ فيــكَ لِلَّطيفِ الخبيرِ [2]

إنَّ قوماً أَصبحتَ تَنفُقُ فيهم
لَعلى غــايةٍ من التسخِيرِ

يا ثقيــلاً على القلوب ، خفيفاً
في الموازينِ دونَ وزنِ النقيرِ [3]

طِرْ سخيفاً ، وقَعْ مقيتاً فطوراً
كسفــاةٍ أَو تارةً كثبيرِ [4]

وقال في ثقيل آخر :

يا أَبا القاسمِ الذي ليسَ يَدري
أَرصاصٌ كِيانُهُ أَمْ حَــديدُ

٢ – تنفق فيهم : أي تروج أخبارهم .

٣ – النقير : نواة . يضرب بها المثل في تفاهة الشأن .

٤ – المقيت : البغيض . السفاة : شوكة سنابل القمح وهي مضرب المثل في الخفة والتفاهة . ثبير : اسم جبل .

أنتَ عندي كماءِ بئرِكَ في الصَّدْ
فِ ثقيلٌ يَعــــلوه بَرْدٌ شديدُ

هجاء الأخفش :

شِعريَ شعرٌ ، إذا تأمَّلَهُ الإنْ
سانُ ذو الفَهْمِ والحِجا ، عَبدَهْ
لكنَّهُ ليسَ مَنْطقاً بَعَثَ اللهُ
بـهِ آيةً لِمَنْ جحَـــدَهْ
ولا أَنا المُفْهِمُ البهائِمِ والطَّيْ
رِ ، سُليانُ قـــاهِرُ المَرَدَهْ
ما بَلَغَتْ بِيَ الخُطوبُ رُتْبَةَ منْ
تَفْهمُ عنهُ الكلابُ والقِرَدَهْ
لا رحمَ اللهُ أُمَّ أَخفشِكُمْ
ولا سَقَى قَـــبرَ والدِ وَلَدَهْ

ماذا عليهِ وقـــدْ رأى ولداً

أعوَرَ جَمَّ العَوارِ ، لو وَأَدَهْ

سَأُسمِعُ النّاسَ ذمّـــهُ أَبداً

مـــا سَمِعَ اللهُ حَمْدَ منْ حَمَدَه



نظرة في هجاء ابن الرومي :

لم يهج ابن الرومي ، كغيره من الشعراء ، رغبة في الارتزاق أو الاعتداء ، أو تحقيقاً لمصلحة شخصية أو مصلحة سياسية ، ولم يهج بغية التسلية بالسباب والشتائم ، إنما هجا تنفيساً عن كربة ، وترويحاً عن نفسه المتعبة وثأراً لحقه المجحف أو لاحساسه المتأذي أو نفوراً من البشاعة . فكان الهجاء عنده « سلاح دفاع لا سلاح هجوم » كما يقول العقاد .

أما طريقته من الهجاء ، فهي في مجملها ، طريقة التهكم والسخرية والمسخ . فهو لا يزال يمعن النظر في مهجوّه ، حتى إذا انكشفت له مواطن القبح الحسي أو المعنوي ، تناولها بما أوتي من براعة في دقة الملاحظة ، ومقدرة على تصوير النواتىء ، وما زال يكبّرها ويشوّهها ، إذا كان القبح حسياً ، الى أن يخرجها ممسوخة « كاريكاتورية » تثير الضحك حتى الاستغراق ، وتبعث الهمّ والغمّ عند المهجو . واما إذا كان القبح معنوياً فيلجأ الى تحقير مهجوّه ، مقلباً إياه بتأنٍ وتؤدة ، مسلِّطاً على مواطن العيب فيه أضواء تفضحه بلا شفقة أو رحمة . ويحدّد شوقي ضيف هذا الجانب من هجاء ابن الرومي بقوله[1] :

« فقد أعدّ مزاجه الحاد لضرب من الهجاء يمكن أن

---

١ – الدكتور شوقي ضيف . الفن ومذاهبه في الشعر العربي .

نسميه الهجاء الساخر ، إذ كان يعبث بمهجوّيه عبثاً لاذعاً يشبه عبث أصحاب الصور الكاريكاتورية ؛ فهو يقف عند نواحي الضعف ويكبّرها ويظهرها في أوسع صورة لها ، حتى ليثير الضحك والاشفاق على من يتناوله منهم ، إذ يصنع بهم صنيع أصحاب الصور الكاريكاتورية : فهم يضعون رأساً كبيراً على جسم صغير ، او يخالفون في أعضاء الجسم فيركبونها عليه تارة بالطول ، وتارة بالعرض ، وهو تركيب مضحك في كل صوره وهيئاته ؛ وكذلك كان ابن الرومي يتناول من يهجوه فيشوّهه تشويهاً غريباً » . ولا يخفى ان مثل هذا الهجاء يحتاج الى فن وبراعة لا نجدهما إجمالاً ، في الهجاء المقذع . فابن الرومي يعمل خياله في تصوّر المشوّه وتصويره ويتلاعب بالمعاني والألفاظ والأشكال تلاعب الصانع الحاذق ، فإذا « ذلك الشخص أو ذلك الشيء صورة مهيّأة في الشعر تهجو نفسها بنفسها ، وتعرض للنظر مواطن النقص من صفحتها كما تتطبّع الأشكال في المرايا المعقوفة والمحدّبة » كما يقول العقاد [1] .

ويقول الدكتور أنيس الخوري المقدسي ان لابن الرومي مع فرط أدبه وتوقّد قريحته عقلية غريبة . فهو في حال سكينته واطمئنانه لبيب مفكر يأتيك بالحكم والأقوال الساحرة ، ولكنه عصبي المزاج شديد الانفعال : فإذا هاجه هائج أضاع لبّه واندفع على وجهه لا يبالي ، حتى في معاتباته لكبار الرجال

---

١ – عباس محمود العقاد . ابن الرومي : حياته من شعره .

تجده مراً أليم اللسان ... وقد غالى بعضهم في هجاء ابن الرومي وجعلوه فناً من فنون الشعر ، وهو كذلك لو اقتصر فيه الشاعر على تصوير المساوىء الشخصية أو الاجتماعية ، وعرضها بقالب يثير في النفس كراهية تلك المساوىء . ولكن شعرنا العربي الهجائي في كل أطواره لم يصل الى تلـــك الدرجة الراقية إلا نادراً . فالهجاء الفني يقتضي أمرين : الفكاهة أو الدعابة ، وحسن التصوير ؛ الأول يرفعه عن الخشونة والإقذاع ، والثاني يضعه في صف الفنون الجميلة . وإنك لترى في بعض الهجاء العربي شيئاً من ذلك ، ولكن أكثره من قبيل الطعن الشخصي الذي يراد به الحط من كرامة الشخص أو كرامة أهله ، لا لقصد اصلاحي بل تشفياً أو تفاخراً . هكذا كانت نقائض جرير [1] والأخطل والفرزدق ، وعلى هذا النمط جرى أكثر الهجائين عند العرب . ولم يشذّ ابن الرومي عن هذه القاعدة . ولا ينكر ان في هجاء صاحبنا شيئاً من الدعابـــة وحسن التصوير ، ولكن معظمه فاحش لا يرتفع الى ما نسميه فناً أدبياً [2] .

---

١ – الأخطـــل والفرزدق وجرير . شعراء المثلث الأموي . اشتهروا بالهجاء والنقائض .

٢ – أنيس الخوري المقدسي . أمراء الشعر العربي في العصر العباسي .

أقوال وشهادات

وكان ابن الرومي ضنيناً بالمعاني ، حريصاً عليها . يأخذ المعنى الواحد ويولّده ، فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ، ويصرّفه في كل وجه ، والى كل ناحية حتى يميته ، ويعلم انه لا مطمع فيه لأحد . وقال أيضاً : وأما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه ، وحسن افتنانه .

ابن رشيق القيرواني

كتاب « العمدة »

... هو صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على المعاني النادرة ، فيستخرجها من مكامنها ، ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه الى آخره ، ولا يبقي فيه بقية .

ابن خلكان

وفيات الأعيان

وهو على قوّة عاطفته وتفكيره ، مديد الخيال ، عميق التصوّر . وخياله مع اتساع مجاريه ينطلق بهدوء وانتظام ،

يسايره المنطق ، فلا يجنح بصاحبه الى الغلو والاحالة ، بل يعمد في الغالب الى اظهار حقائق الموصوفات فيخرجها في أحسن صور وأصدق تمثيل باعثاً فيها حياة تجعلها تهتز وتتحرك ، هائماً في وادٍ كئيب تتفجر في جوانبه ينابيع الدموع ، وتدمي رياحينه أشواك الشهوات والآلام . وابن الرومي أشغف الشعراء بالطبيعة وألوانها ، يتصل بها ويعيش معها ويحسّها احساساً قوياً .

بطرس البستاني

أدباء العرب في الأعصر العباسية

وأياً ما كانت الحال ، فان في تأمل ابن الرومي للطبيعة كثيراً من تفتيش العقل وتأليفه ومعاظلته ، لأنه لا ينهمر في شعره أو يذوب ويتلاشى في ذات الطبيعة كالرومنطقيين ، بل نشعر ان منطقه يلحّ به ويلجّ عليه ، يكاد لا ينفصل عن واقع الفهم والعادة ، حتى يلحق ويتشبث به . لذلك قلما عرف ابن الرومي الغنائية المباشرة الصافية في وصفه للطبيعة ، ولم يعرف التبتّل الوجداني الصوفي المتضرّع المبتهل للطبيعة . فهو ينظر اليها أو يمتزج بها لكنه قلما يفتقد ذاته ويتخلى عنها للطبيعة . لذلك لا نراه يناديها ولا يترجاها ، ولا يصلّي في محرابها كـ « بيرون وموسيّه وكيتس » ، بل ينصرف عنها وينشغل بتأملها وتحليلها ، ليقابل بينها وبين الانسان ، أو

ليكتشف الشبه بينه وبينها . لذلك فإن تغنيه بالطبيعة ليس غنائية مفجوعة ثكلى ، بل غنائية وصفية وئيدة . ابن الرومي شارك في الطبيعة وتأملها وآنس بها ، أما أولئـــك فغمروا أحضانها وذابوا في قلبها المحب السخي .

ايليا حاوي

ابن الرومي ، فنه ونفسيته

كان شاعراً في جميع حياته ، حياً في جميع شعره . وإن الشعر كان لأناس غيره كساء عيد أو حلـّة موسم ، ولكنه كان له كساء كل يوم وكل ساعة .

عباس محمود العقاد

ابن الرومي

حياته من شعره

مآخذ

ابن رشيق	: العمدة
ابن خلكان	: وفيات الأعيان
عباس محمود العقاد	: ابن الرومي ، حياته من شعره
د. شوقي ضيف	: الفن ومذاهبه في الشعر العربي
مارون عبود	: الرؤوس
أنيس الخوري المقدسي	: أمراء الشعر العربي
بطرس البستاني	: أدباء العرب في الأعصر العباسية
فؤاد افرام البستاني	: دائرة المعارف الجزء الثالث
ايليا حاوي	: ابن الرومي : فنه ونفسيته من خلال شعره .



ملاحظة : في درسنا لروضة الربيع ووحيد المغنية اعتمدنا كامل تحليل سليم نكد .

فهرس

للمؤلف

- أبو نواس : في شعره الخمري
- المتنبي : شاعر الشخصية القوية
- دراسات في الأدب العربي

تحت الطبع :

- أبو العلاء المعري
- الجاحظ